سلسلة تفكيك الفكر الغربي

٢

جذور العنصرية الثقافية الغربية

- قراءة تحليلية نقدية في نمذجة تاريخ الفكر الغربي -

د. نزهة بوعزة

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

جُذُورُ العُنصُرِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ الغَربِيَّةِ
قِرَاءَةٌ تَحلِيلِيَّةٌ نَقدِيَّةٌ فِي نمَذَجَةِ تَارِيخِ الفِكرِ الغَربِيّ

نزهة بوعزة

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٥ م - ١٤٤٦هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

سلسلة تفكيك الفكر الغربي
٢

جذور العنصرية الثقافية الغربية
- قراءة تحليلية نقدية في نمذجة تاريخ الفكر الغربي -

نزهة بوعزة
أستاذة فسلفة بأكاديمية الشرق/المغرب

سلسلة تفكيك الفكر الغربي

يحتلُّ الفكرُ الغربيُّ في عالمنا المعاصر، بمختلف تجلّياته في العلوم الإنسانيّة موقعًا مُهيمنًا في تَشكيل التصوّرات الثقافيّة، والنُظم الاجتماعيّة، والسياسيّة. وقد أَسْهَمَ هذا الفكرُ، عبر مساراته الفلسفيّة والتاريخيّة، في تقديم أُطْروحات ومناهجَ أَثّرَتْ بعمق في كيفيّة فَهم الإنسان للعالم، من مفاهيم الحريّة والعَقْلانيّة إلى الحَدَاثَة وما بعد الحَدَاثة. ولَكنَّ هذا الفكرَ، رَغْم إسهاماته، لم يخلُ من التعقيدات التناقضات، بل أَنتَجَ أزمات معرفيّة وخُلُقيّة واجتماعيّة أَلْقَتْ بظلالها على الحضارة الغربيّة ذاتها والعالم بأَسْره. لقد بَرَزَتْ الحاجةُ إلى قراءة نقديّة تفكيكيّة لهذا الفكر، قراءة لا تكتفي بالاحتفاء بإنجازاته بل تتعمّقُ في تحليل مساراته وكَشْف إخفاقاته وعثراته. فالهيمنةُ الفكريّةُ الغربيّةُ ليستْ قَدَرًا محتومًا، بل مشروعًا قابلًا للفحص والنقْد، خاصّة عندما يتعلّق الأمرُ بمفاهيمه التي تبدو أحيانًا منحازةً أو قاصرةً عن استيعاب التجارب الإنسانيّة خارج سياقها الغربيّ.

انطلاقًا من هذا الإدراك، يُطلقُ مركزُ بَراثا للدراسات والبحوث (سلْسلَةُ دراسات تفكيك الفكر الغربيِّ)، وهي سلسلةٌ تُعنى بوضع الفكر الغربيِّ، في أبرز أُطْروحاته ومناهجه في العلوم الإنسانيّة، تحت مِبْضَع النقد والتحليل. تسعى السلسلةُ إلى تفكيك البنَى الفلسفيّة والفكريّة التي قام عليها هذا الفكرُ، وكَشْف مواطن الإخفاق التي أَدَّت إلى أزمات قِيَميّة ومعرفيّة، سواء في الغرب نفسه أم في سياق محاولات اسْتنْساخه في مجتمعات أُخْرى.

إنَّها دعوةٌ لإعادة النَظَر في مسلّمات الفكر الغربيِّ من خلال تحليل مُعمّق ونَقْد منهجيٍّ، يَكْشفُ أوْجَهَ القصور في مقاربته للإنسان والمجتمع، ويُعيد فتحَ البابِ أمام رؤى بديلة أكثر شموليّةٍ وإنسانيّةٍ

مُقَدّمَةٌ:

تنطوي كلُّ ثقافةٍ على درجة معيَّنة من درجات أو مُستويات التَّمركز حول الذَّات، ممَّا يعمل على خلق تراتبيَّة تنطلق من الذَّات باتّجاه الآخر، وقد يدخل هذا التَّوجه في باب المقارنة مع الثَّقافات الأُخرى، رغم ذلك، قد يظلُّ هذا التَّمركز الذَّاتيُّ لأيّ ثقافةٍ في إطار المقبول أو المتَّفق عليه، ولا يصل إلى حدّ إدراجه في مصافّ العنصريَّة الثَّقافيَّة. فقد «ظهرت على مرّ التَّاريخ مركزيَّات ثقافيَّة كُبرى، ارتبط ظهورها بدورة الحضارة؛ إذ إنَّ التَّمركز في الثَّقافات يرتبط دائما بفترات التَّفوُّق الحضاري، الَّتي تُقدّم لحاملي هذه الثَّقافات إحساسًا بالتَّميُّز والاختلاف والتَّعالي عن بقيَّة الأُمم، باعتبارها المؤهَلة تاريخيًّا وإنسانيًّا لبناء حضارة»[1]. إذًا، قد يكون فعل التَّمركُز الثَّقافي مسألةً مُسلَّمًا بها، غير أنَّها قد تُتَّخذ أيضًا مطيَّةً لبلورة توجُّه عنصري ذات توجُّه أيديولوجي، مُحرّكه وَهْم التَّفوُّق أو الاصطفاء الثَّقافيُّ. هذه العُنصريَّة الثَّقافيَّة هي الَّتي تتغذَّى أساسًا على هذه المركزيَّة الثَّقافيَّة

1 - عبد الحق بلقيدوم: «الذات والآخر من خلال المركزيَّات الثَّقافيَّة»، ص37.

والعرقيَّة، فتصير هي المنظارُ الرَّئيس المُشكّل لمجمل رؤيتها إزاء باقي الثَّقافات والشُّعوب، وقد تكون هذه الرُّؤية -المُتمركزة على التَّفوُّق الثَّقافي الغربيّ- نَموذجًا لتوضيح هذه العَلاقة المبنيَّة على الرُّؤية الذَّاتيَّة والعُنصريَّة، بين الأنا والآخر، ومن ثمَّ «ينتمي التَّمركُز الأوروبيُّ إلى مجموعة الرُّؤى الثَّقافيَّة الطَّابع؛ إذ إنَّه يقوم على افتراض تواجد مسالك تطوُّر خاصَّة لمختلف الشُّعوب، لا يمكن إرجاعها إلى فعل قوانين عامة تنطبق على الجميع. فله إذًا، طابع مذهب مضادّ للعالميَّة»[1]. فهذا التَّوجُّه ليس توجُّها علميًّا أو معرفيًّا، بقدر ما هو مقاربة ثقافيَّة ترنو إلى استخدام المُقاربة المَعرفيَّة حجابًا لتمرير الطَّابع الثَّقافي في تعاطيها مع الشُّعوب، ومسألة التَّرتيب الثَّقافي والحضاري للشُّعوب، فنصير أمام عمليَّة تشويهيَّة لمفهوم تثاقُف الحضارات؛ إذ يبدو، أنَّ هذا التَّوجُّه قد وجد شرعيَّة جديدةً تحت اصطلاح العُنصريَّة الثَّقافيَّة، الأمر الَّذي سمح بقبول الفِكرة الَّتي مفادها: إنَّ إظهار العَداء تجاه الجمع الثَّقافيّ الخارجيّ (الآخرون) أمرٌ مقبولٌ ومعقول[2]؛ لأنَّه مدعوم بمسار تقدميّ غربيّ، وهي معقوليَّة مؤسَّسة على رؤية متمركزة وفوقيَّة، تقوم على إعلاء هويَّة أو قوميَّة معيَّنة، وفق تصنيف

---

١ - سمير أمين: نحو نظرية للثَّقافة، ص٧٥.

2 - Anne Claire Orban, peut-on encore parler de racisme, analyse des discours d'exclusion et des mécanismes de rejet, P4.

حدّيّ يمُوضع الأنا في مقابل الآخر. هذا الاستعلاء الَّذي دعمه التَّقدم، في مختلف أبعاده، والَّذي عَرفَه العالَم الغربيُّ خلال الأزمنة الحديثة، جعل الرُّؤية تنحصر في عمليَّة استخلاص وصفاتٍ جاهزة تُلخّص هذا المسار، وتعمل على التَّبشير به بغضّ النَّظر عن السّياقات الثَّقافيَّة المختلفة لباقي الشُّعوب. وبالتَّالي، يصير هذا التَّصنيف إشكالاً معرفيًّا، عندما يتحوَّل إلى رؤية شموليَّة كونيَّة تعميميَّة تحكم مُجمل التَّوجُّهات الخاصَّة بتوجيه العالَم وقيادته، بدعوى أفضليَّة وجوديَّة وصَفوتها تتغذى على التَّفوُّق الثَّقافي والحضاري، في مقابل تبخيس باقي الثَّقافات أو تقزيمها، ممَّا يخلق نوعًا من التَّشوُّه الثَّقافي الَّذي يخلق تراتبيَّة ثقافيَّة على أساسٍ عنصريّ يُناقض جوهر المُقاربة الحضاريَّة والإنسانيَّة، ومن هنا فـ«إنَّ هذا التَّمركز يظلُّ بسيطًا قياسًا بنزعة التَّمركز الغربيّ حول الذَّات أو الأنانيَّة. ففي إطار تأسيسه لذاته كمحور للعالَم وكمعيار لتطوُّره ومركزه، يُنكر الغرب مفهوم النّسبيَّة الثَّقافيَّة الَّتي تُفضي إلى ضرورة احترام الفوارق الثَّقافيَّة السَّائدة بين الشُّعوب والأمم، وهذا ما يُعرف بمفهوم المثاقفة في إطار حدود الهيمنة»[1]. فالهدف التَّقدُّميُّ لم يُعُد كما دأبت الحركات التبشريَّة الثَّقافيَّة الإعلانَ عنه، بل صار مجرَّد غطاءٍ لممارسة الهيمنة والسَّيطرة على باقي الشُّعوب.

---

١ - بلخيرة محمد: برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة - المركزية الغربية نموذجا-، ص٧٧-٨٥، ص٨١.

الفَصْلُ الأَوَّلُ:
تَارِيخُ العُنصُرِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ الغَرَبِيَّةِ

وفي مُحاولة بسيطةٍ لرصد التَّاريخ الثَّقافي الإنساني، يتبيَّن أنَّ ما حقَّقه الغرب، سواء بالنّسبة للفلسفة اليونانيَّة أم الوسيطة أم الحديثة، قد جاء نتيجةَ عمليَّة التَّثاقُف والتَّناهُج بين مختلَف المعارف المُستمدَّة من الحضارات الأخرى، خاصَّة الحضارة الهيليلنيَّة والصّينيَّة والشّرقيَّة والإسلاميَّة، لكنَّه مع ذلك، يُحاول أن ينسج حجابًا وهميًّا يخفي عملية التَّثاقُف ذاتِها؛ إذ رغم أنَّه «اكتشف الغرب الفِكر الهيليني أوَّلًا من خلال الميتافيزيقا الإسلاميَّة، ثُمَّ بعد ذلك -حينما هجر يونانيو أستانة إلى روما بعد سقوط العاصمة البيزنطيَّة عام ١٤٥٣- أدرك الغرب وجود الفِكر اليوناني السَّابق على المسيحيَّة والإسلام، بل أدرك وجود حضارة اليونان القديمة الكلاسيكيَّة الَّتي كان يتجاهلها تماما»[1]. فتمَّ الانتقال من حالة التَّجاهُل إلى مرحلة استثمار تاريخيّ، لتشييد عتبات تاريخيَّة تُؤسّس للهويَّة الغربيَّة من اليونان إلى اليوم.

رغم وجود هذا الخط الاتّصاليّ للحضارة الغربيَّة المُعاصِرة بالأصل اليونانيّ، يتمُّ التَّغاضي -بشكل متعمَّد- عن ذلك التَّفاعل الحضاري الَّذي

١ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، ص٦١.

أسَّس لهذه العتبة التَّاريخيَّة. وهو ما أثاره برنارد مارتن (Bernard Martin)، مُشيراً إلى أنَّ النّظام السّياسيَّ والعلميَّ والفلسفيَّ والدّينيَّ في اليونان القديمة، لم يكن بأيّ معنى أصليًّا خالصًا نقيًّا عن باقي الحضارات، ولكنَّه نشأ عن تفاعُله مع الحضارة الفينيقيَّة في الشَّرق الأدنى من آسيا، وخاصَّة الحضارة المصريَّة القديمة. ويمُكن قول الأمر نفسه عن الفلسفة الوسيطة الغربيَّة، الَّتي بُنيت على أساس الفلسفة الإسلاميَّة والعربيَّة، واستلهامًا منها شَّكلت نهضتها وتنويرها. «وفعلا أكَّد قدماء الإغريق أكثر من مرة -وبحق- أنَّهم تتلمذوا عند قدماء المِصريّين والفِنيقيّين، ولم يروا أنفسهم رمزَ التَّعارُض للشَّرق كما يُصوّرهم المذهب الأوروبيُّ»[1]. وبالتَّالي، فإنَّ عمليَّة الترَّويج لأصلٍ عرقيّ صافٍ مُحدَّد في عرق بعينه، يعبرُّ عن مسار ثقافة أُحاديَّة، وهي عملية واهية تقوم على سرديَّة الاقصاء، بقصد إعلاء الأنا وتهميش الآخر؛ ممَّا يُنتج بالضَّرورة رؤية عُنصريَّة تتغذَّى على مفهوم أنسنة الثَّقافة الغربيَّة كونيًّا.

■ المَبحَثُ الأوَّل: التَّأصيلُ التَّاريخيُّ للعُنصريَّة الثَّقافيَّة في الغَربِ

مرَّت العنصريَّة من قطبين متباينين، لكنَّهما يتغذَّيَان معًا على نوع من النَّرجسيَّة الثَّقافيَّة، فلقد كانت العنصريَّة الكلاسيكيَّة تقوم على العُنصريَّة البيولوجيَّة، وعلى أساس وجود تمايُز بين الأعراق ممَّا نتج عنها ترتيب

١ - أمين: نحو نظرية للثقافة، ص٩١.

الأعراق، وفق رؤية جينيَّة وراثيَّة تُحدّد المعالِم العقليَّة والخُلُقيّة للبشر، وقد كانت هذه العنصريَّة مباشرة وممنهجة، تتبنَّى مقاربة التَّفاضل العِرقيّ بناءً على دعم فرضيَّة بيولوجيَّة، لم ترقَ لمصاف الإثبات العلميّ، في حين تنحو العنصريَّة الثقافيَّة منحىً كونيًّا يُقسّم الشُّعوب من النَّاحية الثَّقافيَّة من منظور الثَّقافة الغربيَّة أو على مقاسها، أي تحديدًا لمجموعة من الصّفات الثابتة والجوهريَّة لثقافة ما، وربط كلّ المنتمين لهذه الثَّقافة بهذا التَّصنيف التَّحليليّ. فننتقل إذًا، من عنصريَّة بيولوجيَّة فرديَّة تخصُّ أجناسًا بعينهم، إلى عنصريَّة ثقافيَّة جماعيَّة تسعى لرسم المُشترك الكونيّ، وفق تراتبيَّة تفاضليَّة تستند لمعيار التَّصنيف الثَّقافي.

لقد تمَّ تجاوز العنصريَّة الكلاسيكيَّة بعدد من المواثيق الدَّوليَّة، خاصَّة في بداية القرن العشرين، لكنَّ العُنصريَّة الثَّانية انتعشت خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين؛ حيثُ ارتقت العنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة من مرحلة النَّمذجة الإرشاديَّة للشُّعوب المتخلّفة، إلى مصافّ العُنصريَّة القائمة على ترتيب العالم وفق ثُنائيَّة مُتعاكسة حدَّ العداء. إنَّ هذا التَّوجُّه العنصريَّ، هو توجُّه ثقافيٌّ بالأساس، لايخضع لأيّ أساس علميّ أو معرفيّ، بقدر ماتنحاز لمطلب تعزيز المركزيَّة الغربيَّة وتقويتها. وهي عنصريَّة عبرَّت عنها العديد من المجالات منها: السّياسيَّة والمعرفيَّة والأدبيَّة والاقتصاديَّة، خاصَّة عندما يتعلَّق الأمر بالآخر غير الغربيّ، "باختصار، إنَّ الثَّقافة الغربيَّة لاتقبل الاختزال والتَّبسيط، ومع ذلك،

ففيها من مظاهر التَّمركُز حول الذَّات ما لاينبغي إغفاله أو نُكرانه، فهي في عمومها ثقافة متعالية متمحورة حول نفسها، قوامها النظر إلى الآخر نظرة دونيَّة منذ الفلسفة الإغريقيَّة إلى الآن"[١]. فما يجعل منها عنصريَّة هو عدة أمور منها: التَّمركُز حول الذَّات الغربيَّة، والشُّعور بالاستعلاء التَّاريخي النَّاتج عن مفهوم التَّقدُّم؛ ممَّا أنتج نظرةً دونيَّة للآخر، حصر الثَّقافة الغربيَّة بوصفه نموذجًا وحيدًا في صناعة التَّاريخ وقيادته.

إذًا، إنَّ عمليَّة التَّأصيل التَّاريخي لفرادَة الفكر الغربيّ وسموّه عن باقي الحضارات، هي نفسها عمليَّة تحمل شحنةً أيديولوجيَّة مُكثَّفة، وتختزن مقاربة معرفيَّةً لصالح إعلاء التَّوجُّهات العنصريَّة، بناءً على مقاربة تقويميّة معياريَّة تضع الثَّقافة الغربيَّة على أعلى السُّلَّم الثَّقافي للشُّعوب؛ حيثُ إنَّ «العودة بأي فكر للبحث عن مصادره وعن أصوله، هي عمليًّا فيها شحنة أيديولوجيَّة ضمنيَّة، المقصود منها هو إهدار أصالة هذا الفكر»[٢]. وعمليَّة إهدار أصالة هذا الفكر، نابعة من محاولة عزله عن سياقه الثَّقافي الَّذي يُغنيه، فينتج من ذلك تقوقُع العالَم في بؤرة غربيَّة مُحدَّدة، تسير وفق توجُّهٍ وعقلٍ واحد لايتغيَّر فيه إلَّا تغوُّل القُوَّة وتعاظمها.

---

١ - عبد الله إبراهيم: في نقد المركزيات، مجلة إيلاف الإلكترونية.

٢ - عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الغربية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية.

يُطلق على العُنصريَّة الثَّقافيَّة أيضًا، العنصريَّة ما بعد الحديثة أو التفاضليَّة، وتعني بناء التَّصنيف الثَّقافي على أساس التَّفاضل وتراتبيَّته، وقد تطوّر هذا المفهوم خلال ثمانينيَّات القرن العشرين، على يد مجموعة من الباحثين وعلى رأسهم (مارتن باركر Martin Barker) وإتيان باليبار(Étienne Balibar)، الذي اقتصر -أي المفهوم- في البداية على التَّوجُّهات أو السُّلوكيَّات العنصريَّة تجاه المهاجرين والمختلفين ثقافيًّا في السّياق الغربي، أي عنصريَّة في ثنايا البِنى الهيكليَّة لبعض الدُّول الغربيَّة الَّتي تقوم على أساس توجُّهٍ يقوم على عداءٍ ثقافيّ استعلائيّ للآخر، حتَّى وإن كان هذا الآخر يعيش وفق هذه الثَّقافة الغربيَّة وفي كَنَفها، حيثُ أثارت هذه العنصريَّة إشكاليَّةً تجاه الثَّقافات الأُخرى بدعوى دونيَّتها، مقارنةً مع الثَّقافة الغربيَّة النَموذجيَّة، ممَّا منحها دورًا إقصائيًّا لباقي الثَّقافات، فقد «مارس إقصاء منقطع النَّظير لكلّ ماهو ليس غربيًّا، دافعًا به إلى خارج الفلك التَّاريخي الَّذي أصبح الغرب مركزه، وأباح لنفسه حقَّ استغلاله والسَّيطرة عليه»[1]. وقد يكون الفضل في إثارة هذا التَّوجُّه العنصري في السَّاحة العربيَّة، عائدًا إلى (إدوارد سعيد) إثر نشره لكتابه «الاستشراق» خلال ١٩٧٨م، مسلّطًا الضَّوء على المَأسسةِ العُنصريَّة الَّتي حدَّدت الخطابات الغربيَّة

١ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، موقع مؤمنون بلاحدود.

في إطار عمليَّة انفتاحها على باقي الثَّقافات المُختلفة. «ومن ثمَّ فإنَّ ما تكفَّلت به النُّخبة ما بعد الكولونياليَّة -بعد أن غيرَّ الغرب من نموذج (Paradigme) الهيمنة من الأسود إلى الأبيض- هو أنَّ تواصُل خُطَّة الغرب لدى غير الغربيّين في شكل حداثةٍ ناعمة يتمُّ حقنها عن طريق مجموعة من الأنظمة المُتضافرة: التَّعليم والقانون والاقتصاد- تربية 'العقول'؛ وتنظيم 'السُّلطة'؛ وتوزيع 'الغذاء'- تعمل كلُّها في 'لعبة لغوية' موحَّدة، هي لغة الغرب مترجمة في الألسن المحليَّة الطبيعيَّة»[1]. فالحديث عن التَّأصيل التَّاريخيّ لمفهوم العنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة، هو حديث عن الجُذور الأولى لتَشكُّل هذه الهويَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة، قد يكون مفيدًا هنا التَّمييزُ ما بين التَّأصيل التَّاريخي لمفهوم العنصريَّة الثَّقافيَّة، والتَّجذير الفلسفي لمأسَسة هذا المفهوم وفق الرُّؤية الاستعلائيَّة للثَّقافة الغربيَّة، فالمنحى الأوَّل، رافق المسار التَّاريخيَّ منذ تحالُف الكَنيسة مع الإمبراطوريَّة الرومانيَّة، أمَّا المَنحى الثَّاني، فقد ارتبط بالوعي التَّاريخي الحداثي الَّذي ترجمه مفهوم التَّقدُّم؛ إذ إنَّ العنصريَّة الثقافيَّة جاءت باعتبارها تتويجًا للوعي الذَّاتي الغربي إبان الحداثة، الَّتي عملت على التنبيه للمُعطى الزَّمني أو الوعي التَّاريخي بالذَّات الغربيَّة، ممَّا عمل على النَّظر إلى الوراء لرسم خطٍ تصاعُديّ، يصل الحداثةَ

١ - فتحي المسكيني: كولونيالية الكراهية، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني.

بالفكر اليوناني. ومن ثَمَّ، فإنَّ هذه العنصريَّة نَحت منحىً تاريخيًّا تصاعديًّا، وعملت على تقوية النَّزعة الحداثيَّة والتَّنويريَّة، فتحالف كلٌّ من التَّأطير السّياسيّ والقُوَّة الاقتصاديَّة والعسكريَّة والوعي التَّاريخي التَّقدُّمي؛ ممَّا منح هذه الهويَّة مِشعلَ رفع الكونيَّة والإنسانيَّة على باقي الحضارات. ومن ثمَّ تمَّت تزكية التراتبيَّة التَّصنيفيَّة الَّتي ترفع الثَّقافة الغربيَّة إلى المصاف الموجّه للتَّاريخ الإنسانيّ ومحدده، هذه التَّراتبيَّة الَّتي تغذَّت بشكلٍ كبيرٍ على المُقاربة الحدّيَّة مابين الشَّرق والغرب، التَّقدُّم والتَّخلُّف، الشَّمال والجنوب.

لهذا، يمُكن القول إنَّ عمليَّة التَّأصيل للعنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة، ارتبطت بالبداية بالسُّموّ التَّأمُّلي للفكر اليوناني، ثُمَّ تعاظم هذا الوعي مع تحالف الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة والمسيحيَّة؛ حيثُ تبنَّت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة للدّيانة المسيحيَّة، وقد «أمست قوَّة سياسيَّة حينما اندمجت في بناء مؤسَّسة الدَّولة، وفيما بعد في ثقافة الغرب»[1]. هذا التَّحالف الَّذي فتح أفق التَّوسُّع المسيحي بآليَّات الدَّولة الرُّومانيَّة، أو «مَسحنَة» الدَّولة، ممَّا أوحى بنوع من الاستمراريَّة في رسم التَّجارب التَّاريخيَّة للغرب وعدم انفصالها عمَّا سبقها، أي نوعٍ من الوعي بالامتداد التَّاريخي، ومن هنا « أُقيمت الثَّقافة الأوروبيَّة الجديدة على

١ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص٣٦.

أساس خرافة مفادها: الادّعاء بالاستمراريَّة في تاريخ القارَّة الأوروبيَّة، وإبداع جذور قديمة وهميَّة للتَّضادّ بين هذا التَّاريخ المزعوم وبين تاريخ المنطقة الَّتي تقع على الشواطئ الجنوبيَّة للمتوسّط»[1]. فهذا العزل الثَّقافيُّ الغربيُّ هو من أنتج المُقاربات الحدّيَّة على مستويين؛ الأوَّل على مستوى الثَّقافة الغربيَّة وتاريخها ومفاهيمها التَّأسيسيَّة، فصرنا نتكلم عن الجنوب والشمال، الغرب وغيره، الحداثة وما قبلها ...، والثَّاني على مستوى مفهوم التَّاريخ الكوني ككل؛ حيثُ تمَّ حصره بشكلٍ تعسُّفيّ وفق عقيدة التَّقدُّم الغربي.

قد يرتبط مفهوم العنصريَّة الثَّقافيَّة أيضًا بجذور بلورة مفهوم «الغرب» ذاته، فالمفهوم يعكس خصائص عرقيَّة ودينيَّة وحضاريَّة وسياسيَّة ترتبط بالتَّاريخ الغربيّ، وقد تقوَّى هذا التَّوجُّه خلال العصر الوسيط؛ حيثُ ربط المفهوم بقصديَّة تمييزيَّة تُعلي من الذَّات الغربيَّة، انطلاقًا من التَّجذير لها بشكلٍ أُحاديّ يُقصي باقي الحضارات، مُغيّبًا أي عمليَّة تبادل تاريخيّ للثَّقافات ترجمت هذا المسار الثَّقافيَّ، «فقد أوضح (برنال) أنَّ ما أسماه بالحماسة اليونانيَّة، إنَّما هي ظاهرة حديثة نشأت في سياق عنصريَّة حركة الرومانتيكيَّة الأوروبيَّة للقرن التَّاسع عشر. وجدير بالمُلاحظة هنا، أنَّ مؤسّسي هذه الحركة الأخيرة هم هؤلاء الَّذين وجد

١ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، ص٧٦.

(إدوارد سعيد) أنَّهم أيضًا مؤسّسو الاستشراق»[١]. وهو ما يُحيل إلى سِياق زمنيّ غربيّ توسُّعيّ، تعاظم فيه الوعي بالعقل الغربي وتفوُّقه على باقي الشُّعوب تحت ذريعة «الحضارة»؛ إذ «صاغ كلمة الحضارة في ستينيَّات القرن الثَّامن عشر دُعاة التَّنوير؛ إذ زعموا أنَّ المجتمع التّجاريَّ المعاصر يمُثّل أرقى وضع يمُكن أن يتطلَّع إليه الإنسان، وأنَّ هذا المُجتمع نتاج مُمكن، ممكنٌ لجميع الشُّعوب حيثُما كانوا لعمليَّة تاريخيَّة مُحدَّدة ومعقولة، ويمُكن إلى حدّ ما التَّحكُّم فيها»[٢]. إذً، أُقصي أي حضور لباقي الحضارات الَّتي شكَّلت جزءًا مُهمًّا من الثَّقافة الغربيَّة، وقد يكون كتاب برتراند راسل (Bertrand Russell) «حكمة الغرب» أفضل نَموذج عن هذا التَّوجُّه، فالكتاب يرصد تاريخ الفِكر الفلسفيّ الغربيّ بشكلٍ حصريّ، مغيّبًا أيّ حضورٍ لباقي الثَّقافات، ومنها الفلسفة الإسلاميَّة وما ساهمت به من نهضة غربيَّة خلال العصر الوسيط، أو على الأقل تأثير (ابن رشد) على التَّوجُّهات المدرسيَّة الغربيَّة آنذاك.

وقد تقوَّى هذا المنحى، بفِعل التَّحوُّلات الَّتي أطَّرت فعل العَلمَنة السّياسيَّة أو هيكلة الدَّولة المدنيَّة الَّتي حصرت سلطة الكنيسة وسلَّمت زمام الأمر للدَّولة، «مع أواخر القرن السَّادس عشر بدأ تنوُّع المجتمعات

---

١ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، ص٩١.

٢ - توماس سي.باترسون: الحضارة الغربية - الفكرة والتاريخ-، ص٧٩.

البشريَّة يبدو مفهومًا في صورة أنماط تراتبيَّة هرميَّة، ومتوَّجًا بالحضارة الغربيَّة»[١]. هذا التَّتويج لثقافةٍ مُعيَّنة، يمُكنها بشكلٍ تلقائيّ ممارسة العنصريَّة الثَّقافيَّة؛ لأنَّها أشبه بعمليَّة تصنيفيَّة خارج التَّاريخ لفاعليَّة بشريَّة لا زالت في خضم التَّاريخ، فتختلط المُقاربةُ المعرفيَّةُ بالمقاربة المِعياريَّة، إنْ لم نقل تطغى المقاربة المعياريَّة على البِنى المعرفيَّة.

وهو ما تُبرزه بشكلٍ لافت «أفكار السُّمو الأوروبيّ، وفكرةُ امتداديَّةِ أوروبَّا، وفِكرة أوروبَّا مركز العالَم نفسها اعتبارًا من القرن الثَّامن عشر، حيثُ تُصبح أوروبَّا الوسيط للتَّقدُّم الكوني، والسَّيد المِعطاء الَّذي ينبغي على العالَم أن يكون معتمدًا عليه سياسيًّا وتكنولوجيًّا»[٢]. ثمَّ ما زكته الحركة الاستعماريَّة، وأيضًا الحملات الاستكشافيَّة الَّتي قادها الغربُ نحو عوالم الآخر، مُحقّقًا توسُّعه الجغرافيّ والثقافيّ، ومستحوذًا على موارد جديدة تُديم تفوُّقه وبقاء قيادته بدعوى تقدُّميَّته ونموذجيَّة ثقافته؛ إذ «هناك وجهان لا فاصل بينهما لعمليَّة تكوين النّظام الجديد وهما: التَّحول الكيفيُّ في طابع النّظام الاجتماعي الأوروبيّ وتبلور عناصر الرأسماليَّة فيه من جانب، وغزو العالَم من خلال التَّوسُّع الأوروبيّ من الجانب الآخر، وليست النَّهضة الأوروبيَّة

١ - توماس سي.باترسون: الحضارة الغربية - الفكرة والتاريخ-، ص١١٤.

٢ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، موقع مؤمنون بلاحدود.

مرحلة التَّحرُّر من الأيديولوجيا الخراجيَّة فقط، بل هي أيضا نقطة انطلاق توسُّع أوروبَّا الرأسماليَّة وفتح العالم لمصلحتها»[١]. مماَّ غذَّى الفكرُ الاقتصاديُّ والتَّشكُّل الأوَّلي للنّظام الرأسمالي، واستوطنت أُولى المعالِم الَّتي تُحدّد الفِكرَ الغربيَّ الجديد، الَّذي يتغذَّى على قدرة الأوروبيّين على فتح العالم والتَّحكُّم فيه، «وهكذا فإنَّ عصر النَّهضة الَّذي تزامن مع اكتشاف أمريكا سيكون مميَّزا عمَّا سبقه؛ لأنَّه أبرز إلى الوجود إدراك الأوروبيّين أنَّهم أصبحوا قادرين على فتح العالَم كلّه، أي أنَّهم ومنذ ذلك التَّاريخ أدركوا مدى تفوُّقهم المُطلق على غيرهم، وأدركوا أنَّ هذا التَّفوُّق قد جعل فتح العالم لمصلحتهم لا يعدو كونه مشكلة وقت، فأصبح احتمالاً لا بُدَّ أن يتحقَّق، ولو أنَّ هذا الفتح قد استغرق وقتًا طويلاً بالنّسبة إلى الوعي بإمكان تحقُّقه»[٢]. ويمُكن القول إنَّ هذه النَّظرة المُخصَّصة والموجَّهة بشكلٍ حصريّ نحو العالَم، والَّتي تقوم على أساس التَّقسيم الثُّنائيّ: أوروبي/ لا أوروبي، متمدن / متخلف، متقدم / ماضوي، تخدُم مخطّطات الاستعمار الغربيّ الجديد[٣].

---

١ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، ص٧٦.

٢ - عبد الله إبراهيم: المركزيَّة الغربيَّة، ص٢١.

3 - Anne Claire Orban, peut-on encore parler de racisme, analyse des discours d'exclusion et des mécanismes de rejet, p31.

إنَّ عمليَّة التَّجذير أفرزت بحوثًا قيّمة، تُثبت توجُّهًا عنصريًّا للفكر الغربيّ حتَّى ماقبل الأزمنة الحديثة، رغم أنَّها كانت أكثر بروزا خلال الحداثة؛ لأنَّها اتَّخذت شكلاً مُمنهجا ومُنسَّقا؛ إذ منذ القرن الثَّامن عشر تمَّ تصوير الحضارة اليونانيَّة على أنَّها رائدةٌ للثَّقافة الغربيَّة ومصدرها الحضاريُّ الوحيد، وغُلّفت بنوع من الأسطرة الَّتي ترفعها عن التَّفاعل الحضاريّ، وتُصنّفها بالمعجزة اليونانيَّة، كأنَّنا أمام نوع من الأَسطرة لنموذج حضاريّ وإخراجه من التَّاريخي الإنسانيّ. وهو توجُّه يُحاول أن يعيد رسم التَّاريخِ الثَّقافيّ الغربيّ بما هو تاريخ نموذجي يرقى على باقي الحضارات، وهو ما يُذكّرنا بمفهوم الاستشراق عند (إدوارد سعيد)، أو موقف العالم الغربيّ من الشَّرق بداية من اليابان وصولاً إلى مصر، بأنَّه توجُّه يفتقر للفكر والبنَى المعرفيَّة، وكذا الفضائل الخُلُقيّة الرفيعة. إنَّ مفهوم العنصريَّة الثَّقافيَّة يرتبط بشكل متشابك مع عدَّة مفاهيم منها: الثَّقافة والحضارة؛ حيثُ تمَّ دمج الثَّقافة والحضارة والتَّقدُّم الفكري، في مُقابل الطَّبيعة والتُّراث والماضي، «فالثَّقافة الَّتي كانت تعني أصلاً فنَّ التَّثقيف أو تنمية شيء ما في التُّربة، أضحت كلمة مجازيَّة تُشير إلى عملية تثقيف العقل البشريّ في القرن السَّابع عشر. وبحلول القرن التَّاسع عشر، أصبحت الثَّقافة تشير إلى كلّ من العمليَّة والوضع الَّذي حدث عندما أصبح النَّاس رجالاً ونساءً مهذَّبين أو صقلهم التَّعليم (عمليَّة

التَّحضُر)»[1]. فرُسّخت المُقاربة الحدّيَّة الَّتي تَقسم العالم وفق رؤية ثقافيَّة تُحدّد السلوكيَّات وأنماط التَّفكير وفق التَّحضُر والبربريَّة أو الهمجيَّة. فالتَّحضُر خاصيَّة لمن أنتجوا الحضَّارة وما سواهم يفتقدون لها؛ لأنَّهم لا زالوا غارقين في الهمجيَّة أو الانعدام الحضاريّ، هذه الرُّؤية ذات التَّوجُّه القُطبيّ الحدّي تتغذَّى -بالأساس- على مفهوم مركزيَّة الذَّات، هذا المفهوم الَّذي يعود لـ(سمير أمين) من خلال كتابه «نحو نظريَّة للثَّقافة نقد التَّمركز الأوروبيّ والتَّمركُز الأوروبي المعكوس» الصَّادر عام ١٩٨٨م، وهو كتاب يتناول الفَهم الماديَّ للرأسماليَّة والإمبراليَّة الغربيَّة. إنَّ هذا التَّوجُّه العنصريَّ الَّذي يرسم للتَّاريخ الغربيّ الممتد إلى الفلسفة اليونانيَّة، لا زال قائمًا إلى اليوم؛ حيثُ يتمُّ تقديم الحضارة اليونانيَّة -بماهي أصل العلم والمعرفة- موقع نشوء الفلسفة أُمُّ العلوم. ومن هنا، بدأ التَّمييز بين الشُّعوب بناءً على موضوع فِكرهم، وإضفاء نوع من الأسطرة على نموذج التَّفكير اليونانيّ العقلانيّ الَّذي يبتعد -بشكلٍ ما- عن الأُسطورة والسّحر والخُرافة الَّتي يعيش على وقعها باقي الشُّعوب، بل وُصِفت بمعجزةِ العقل البشريّ. وبالتَّالي «اقترنت ميلاد الغرب المعاصر بظاهرة التَّأصيل العِرقي القائلة، بوجود طبائع وخصوصيَّات عِرقيَّة، تقبع وراء الحضارة الغربيَّة الحديثة؛ حيثُ لعبت نظريَّة الطَّبائع العِرقيَّة دورًا فاعلاً في إعادة تشكيل

١ - توماس سي. باترسون: الحضارة الغربية - الفكرة والتاريخ-، ص٨٢-٨٣.

تاريخ الغرب، باعتباره ثمرة مؤهلاتٍ بشريَّة ذات خصوصيَّات عِرقيَّة متميّزة»[١]. فالمرحلة المُعاصرة، وما تشهده من صراع حول قيادة العالم، لها جذور ماضِيَة تتَّصل بالرُّؤية الَتي يُكنُّها العِرق الأبيض أو الأوروبيُّ إلى نفسه في مقابل باقي البشر.

إنَّ هذا التَّوجُّه العنصريَّ، قد ذهب حدَّ حصر الفلسفة بالعِرق الأبيض دون غيرهم، فـ«من هذه الحقائق المُخترَعة: خرافة بأنَّ الإغريق هم أسلاف الأوروبيّين، والميل إلى تفسير المسيحيَّة على أنَّها تمتاز بميزات تُعطي لها تفوُّقًا على الأديان الأُخرى، الَّتي أقامها الاستشراق واختراعه لخصوصيَّات مضادَّة تمُيّز المجتمعات الشَّرقيَّة، وأخيراً العنصريَّة البحتة المتَّصلة بالتَّعصُّب العِرقي»[٢]. بل قدَّموا نماذج عرقيَّة للثَّقافة الغربيَّة؛ إذ على سبيل المثال؛ قُدّم أوغسطين(Augustine) في بعض اللوحات والرسومات الحديثة بملامح رجُل ذو بشرة بيضاء، في مُحاولة لطمس أصوله الإفريقيَّة، والتَّجذير للمركزيَّة الغربيَّة، والتَّنصُّل لما قد يَمَسُّ تلاقُح الحضارات، وهو إقصاء مقصود وممنهج لباقي الفلسفات والحضارات غير الأوروبيَّة، في محاولة لتشكيل التَّاريخ الإنسانيّ، انطلاقًا من اليونان القديمة وصولاً لما نحن عليه، ويُمكن رصد أوج هذه العمليَّة الَّتي حاولت

١ - بلخيرة محمد: برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة، ص٨٠

٢ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص٢٢.

تشكيل الهويَّة الغربيَّة منذ أواخر القرن الثَّامن عشر وأوائل القرن التَّاسع عشر؛ إذ إنَّ «فكرة السُّمو الأوروبيّ، وفكرة امتداديَّة أوروبَّا وشموليَّتها، وفكرة أوروبَّا مركز العالَم ستفرض نفسها في القرن الثَّامن عشر»[١]. رافق هذا المنحى تشويهًا ثَقافيًّا لجُلّ العدَّة الحداثيَّة الغربيَّة، في عمليَّة تصديرها إلى باقي الشُّعوب، لهذا تمَّ تسطير آليَّات تطوير الدول انطلاقًا من النَّموذج الغربيّ، فـ«قد حذا العالم حذو الغرب في ذلك أو أشعُر على الأقل، بالضَّغط من أجل أن يفعله. فليس هناك بالفعل أيُّ تاريخ آخر غير التَّاريخ الأوروبيّ- الأمريكي، بل ليس هناك تاريخٌ أوروبيٌّ قبل عصر التَّنوير»[٢]. إنَّ الوعي التَّاريخيَّ باللحظة الزمنيَّة لمفهوم الحاضر والمستقبل والماضي، الَّتي شكلتها الأزمنة الحديثة، هي من أطَّرت الفكر التَّاريخيَّ، وحدَّدت عتباته الَّتي حُصرت على التَّاريخ الغربيّ الَّذي توَّجته الحداثة الغربيَّة.

توجَّهت أغلَب الكتابات الَّتي تؤرّخ للفِكر الفلسفيّ، إلى رسم صيرورة للتَّاريخ باتّجاه خَطي تَقدُّمي يقوده و الغرب يُنهيه، وهو أشبه باختراع قالب لصيرورة تاريخيَّة تقوم -بالأساس- على قوميَّة ثقافيَّة وفنيَّة واجتماعيَّة عالميَّة، تتربَّع على التَّاريخ البشريّ، هذا التَّفوُّق أنتج عدَّة مفهوميَّة، تنتعش على نوع من التَّعالي الثَّقافيّ والمعرفيّ والوُجوديّ،

١ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص١٩.

٢ - وائل حلاق: الدولة المستحيلة - الإسلام والسّياسة ومأزق الحداثة -، ص٣٣.

الَّذي يجعل الفلسفةَ الغربيَّة في نشأتها اليونانيَّة تَرقى فوق باقي المعارف والحضارات. ونجد لهذه التَّوجُّهات العنصريَّة عند كبار الفلاسفة مثل: مارتين هايدغر (Martin Heidegger) وجاك دريدا (Jacques Derrida) وهيجل (Hegel) وإيمانويل كانط (Immanuel Kant) ...، وقد تعامل هذا الأخير مع مسألة الأعراق بتراتبيَّة فكريَّة عنصريَّة، فوضع تصنيفًا للأعراق، مبنيًّا على مدى قُدرة كلّ عِرق على التَّفكير المُجرَّد والإبداع العقليّ في المجال الَّذي يخُصُّ هذا العالَم؛ لأنَّ هذا التَّصنيف يسمح له بإدراج النَّموذج الغربيّ في أعلى قمَّة التَّرتيب العالميّ. بهذا يكون «كانط قد تنكَّر لمبادئه الخُلُقيّة، وغرق في النَّزعة العِرقيَّة الشوفينيَّة الَّتي تُؤمن بتفوُّق الرَّجل الأبيض، وصنَّف البشر بحسب المعايير العِرقيَّة وفق سُلَّم سيكولوجيّ وفيزيائيّ، احتل فيه أصحاب البشرة البيضاء (الأوروبيون) المكانة العُليا في مراتب التَّفوُّق والذَّكاء، مُشيراً إلى أنَّهم أكثر الأنواع البشريَّة ذكاءً وفعاليَّة ومقدرة على بناء الحضارات. وهم أيضًا الَّذين يمتلكون كلَّ المواهب البشريَّة والدَّوافع الَّتي تجعلهم سادة على كلّ البشر، على اعتبار أنَّهم فقط من تتحقَّق فيهم الإنسانيَّة الكاملة»[1]. وبالتَّالي، فإنَّ عمليَّة الفرز الثَّقافيَّ الغربيَّ، عملت على الرَّفع

١ - غيظان السيد علي: الفلسفة الإفريقية - البحث عن الهوية ومناهضة المركزية الغربية-، ص٤٢.

من الخُصوصيَّة العرقيَّة والدِّينيَّة تحت شعارات الإنسانيَّة والمُشترك الكوني، بل رُبط التَّميُّز الحضاريّ والوجوديّ بعِرق دون غيره. وعليه، فإنَّ «التَّأكيد على دور الخصوصيَّات العِرقيَّة في بناء الصَّرح الحضاريّ الغربيّ الحديث معناه أنَّ ثمةَّ فئة بشريَّة محكومة بطبائع عِرقيَّة ثابتة أبدية وسامية، هي الَّتي أنتجت ذلك الصَّرح الحضاريَّ. وأن لا دورَ لبقيَّة الأجناسِ على امتداد الأزمنة في ذلك»[١].

إنّ إخراج باقي الثَّقافات من مدار الفاعليَّة التَّاريخيَّة بدعوى تفوُّق ما، هو عنصريَّة تسمح بخلق تراتُبيَّة وجوديَّة بناءً على الاصطفاء الثَّقافيّ والعِرقيّ، فـ«عنصريَّة التَّفاوُت هي الإيمان بوجود تمايُز ثقافيّ بين الأجناس، وبأنَّ هذا التَّمايُز له أساس ماديٌّ (بيولوجيٌّ – بيئيٌّ - وراثيٌّ)، ثمَّ الانتصار للجِنس الَّذي ينتمي إليه الفردُ أو المُجتمع، باعتباره جنسًا مُتفوّقًا، وهو ما يمنح عضو هذا الجنس المتفوّق حقوقًا ومزايا ومكانة لا تُمنح لأعضاء الأجناس الأخرى»[٢]. هذا الاصطفاء الَّذي جعل جُلَّ ثروات العالَم وموارده الأساسيَّة تحت سيطرة العالم الغربيّ، فصار يحتكم على ما يقارب من ثمانين في المائة من ثروات العالَم.

يمُكن الإشارةُ إلى أنَّ هذا السّجال قد ظهرت بوادره خلال مُنتصف

---

١ - بلخيرة محمد: برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة، ص٨٠.

٢ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٨٠.

القرن العشرين، خاصَّة عند بعض المُفكّرين الألمان (اليهود) في إطار انتقادهم للمركزيَّة الغربيَّة الَّتي تُوّجت بأزمةٍ سياسيَّةٍ عالميَّة، وكذا ماتعرضوا له من اضطهاد وتنكيل، وقد يكون كارل شميت (Carl Schmitt)، وحنا آرنت (Hannah Arendt)، وكارل لويث (Karl Löwith) أبرز نماذج استطاعت توجيه انتقادٍ للمركزيَّة الغربيَّة، وما أنتجته من مآسٍ للبشريَّة. لكنَّه يعود اليوم إثر ما نشهده من تراجُع في الأمر الخُلُقيّ، هذا التَّراجع الَّذي أبرز تهافُت المركزيَّة الغربيَّة الَّتي طالما كانت نَموذَجًا إرشاديًّا لجُلّ الدُّول غير الغربيَّة، بالأخصّ الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة، فهذه الرُّؤية الَّتي استوطنت فيها دونيَّة تجاه الهويَّة الذَّاتيَّة لهذه الدُّول، وربط التَّخلُّف أو التَّأخر الحضاريّ بالانتماء إلى غير الغرب. حيثُ تمَّ تبخيس الانتماء الهويَّاتي الذَّاتيّ، وقطع الصّلة لاستمراريَّة تاريخيَّة تُعبرّ عن تجارب تاريخيَّة مختلفة لفائدة استلهام نَموذج غربيّ، يُصنّف وفق عتبة التَّفوُّق الثَّقافيّ. ومن هنا، تمَّ ربط إمكانيَّة النَّهضة والتَّقدُّم والإصلاح، بمدى استلهام النَّموذج الغربيّ. وهو مايُثير المرحلة الثَّانية من العنصريَّة الغربيَّة الَّتي تجدَّدت في أشكال مُغايرةٍ؛ حيثُ «إنَّ العنصريَّة الجديدة ليست مُعادية لجماعة إنسانيَّة بعينها لحساب جماعة أُخرى، وإنَّما هي عنصريَّة موجَّهة ضدَّ العنصر اللاإنسانيّ نفسه، وضدَّ ظاهرة الإنسان ذاته ككائن متميّز، وضدَّ مفهوم الطَّبيعة البشريَّة والمعايير البشريَّة والمرجعيَّة الإنسانيَّة

والجوهر الإنسانيّ كشيء متميّز في عالم الطَّبيعة»[١]. فالتَّاريخ الغربيُّ يعج بنماذج فلسفيَّة حاولت أن تقرأ التَّاريخَ الغربيَّ بنوع من التَّرفُّع العنصريّ، الَّذي يحصر الإبداع الفِكريَّ وقيادة العالَم في الجنس الأوروبيّ الأبيض: (مور وبرتراند راسل وإيمانويل كانت وهايدغر)، لكن هذا لايعني تقديم خطاب سلبيّ بشكلٍ مطلق حول الثَّقافة الغربيَّة، إذ إنَّ هناك أسماءً غربيَّة واجهت هذه المركزيَّة الغربيَّة وتوجُّهها العنصريَّ وانتقدتها، كما أنَّنا لا نُجادل بخصوص المفاهيم، بقدر مانثير التَّشوه الثَّقافيَّ الَّذي لحق العدَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة في مسألة تعاطيها مع الإنتاج الثَّقافيّ الذَّاتيّ، وعمليَّة التَّبشير التَّقدُّمي لباقي الشُّعوب، وما أنتجه من توجُّهٍ لسيطرة على باقي العالم والهيمنة عليه، فـ«السُّلطة الأيديولوجيَّة والاقتصاديَّة والسّياسيَّة الغربيَّة، الَّتي انفكَّت من عقالها في أوروبَّا التَّنوير، قد استمرَّت لتعيد تشكيل حيوات غير الأوروبيّين، وغالبًا مافعلت ذلك بالوكالة على يد غير الغربيّين أنفسهم»[٢].

إنَّ عمليَّة التَّأصيل للفكر العنصريّ في جانبه الثَّقافيّ، قد رسم مسارين: مسارًا يربط الفكر الغربيَّ بالأصل اليونانيّ، جاعلاً الجانب الدّيني في

---

١ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٨٧.

٢ - سيندر بانجستاد: مقارعة العلمانوية - العلمانوية والإسلام في أعمال طلال أسد -، موقع معهد العالم للدراسات الإلكتروني.

الهامش، ومسارًا يربط الفِكر الغربيَّ بالجانب الدّينيّ اليهوديّ المسيحيّ. المسار الأوَّل كان طاغيًا خلال القرن العشرين، غير أنَّ المسار الثَّانيَ استطاع أن يُفرز حضورًا في السّياق الغربي منذ ستينيَّات القرن العشرين، خاصَّة في القراءات الَّتي تقوم على الجانب النَّقديّ للتَّاريخ الغربيّ. بدأت بوادر هذا الرَّبط مابين الحداثة الغربيَّة والجُذور اللاهوتيَّة مع نيتشه (Nietzsche) لتستمر مع جيل ما بعد «النيتشويَّة» -مثل: ماكس فيبر(Max Weber)[1]، وكارل شميث(Carl Schmitt) [2]، وإريك فوجلين (Eric Hadigian)، وكارل لوفيث (Karl Löwith)، ورانهارت كوزيليك

---

١ - ماكس فيبر أوَّل من أثار دور الواقعيَّة الدّينيَّة في تأسيس الرُّوح الرأسماليَّة الغربيَّة، إذ «اعتبر أنَّ المصالح الاقتصاديَّة هي الموجّهة لمصالح النَّاس الجماعيَّة، لكنَّه أضاف إليها مصالح أخرى معنويَّة، تسعى الجماعة **للوصول إليها وتحقيقها** كالقوَّة والسَّيطرة، من دون أن يغفل دور الثَّقافة الدّينيَّة في التَّأثير في الجماعة، خصوصًا في تكيُّفها مع المصالح الاقتصاديَّة»؛ مصطفى ايت خرواش: نظريَّة العلمانيَّة عند عزمي بشارة -نقد السرديَّات الكُبرى للعلمنة والعلمانيَّة-، ص٢٧.

٢ - كارل شميت أوَّل من أثار صلة السّياسة بالجذر اللاهوتي، وقد حمل كتابه الرَّئيس عنوان«اللاهوت السّياسيّ»، وهو ما أكَّده من خلال الفصل الثَّالث من هذا الكتاب يقول: «إنَّ مفاهيم النظريَّة الحديثة للدَّولة كلّها ذات الدلالة، هي مفاهيم لاهوتية مُعلمنة»، ومعلوم أنَّ (و. حلاق) تأثر بأعمال كارل شميت واستمد آليَّات عمله ومنها مفهوم «النطاق المركزي».

كارل شميت: اللاهوت السياسي، ص١٤.

(Reinhart Koselleck)، وغيرهم- قراءةٌ نبَّهت لدور الواقعة الدّينيَّة في تشييد الفكر الغربيّ الحداثيّ، كأنَّ الأمر لم يكن انفصالاً عن الدّين، بل كان نوعًا من علمنة المفاهيم الدّينيَّة، أو لنستعير مقولة (كارل لوفيث) للتَّصوُّرات الثيولوجيَّة، فـ«الإنسان الحديث صاغ فلسفة التَّاريخ عبر علمنة المبادئ الثيولوجية، في ارتباط بمعنى مفهوم التَّقدُّم الَّذي يقود نحو الاكتمال»[1]. وهو ما أكَّده أيضًا المُفكّر المغربي (بلقزيز)، بالإشارة إلى أنَّ الشُّعور بالتَّفوُّق لدى الغرب كان «موجودًا دينيًّا في الكتابات اللاهوتيَّة المسيحيَّة منذ القرن الميلاديّ الثَّاني، حتَّى القرن الخامس عشر. كلُّها تنضح بالشُّعور بالتَّفوُّق الدّينيّ المسيحيّ. هذه النَّظرة إلى الذَّات، بوصفها ذاتًا متفوّقةً سيّدة في المجال الرُّوحي، سيأتي زمن وستُصبح نظرة مدنيَّة بدل أن تكون دينيَّة، فتُصبح مدنية ...، وهكذا صارت أوروبة في القرون ما بين القرن السَّادس عشر، والقرن الواحد والعشرين، وبعبارة أُخرى إنَّنا نستطيع أن نعثُر على بصمات هذا التَّاريخ القديم في الفكر الأوروبيّ الحديث»[2]. مماَّ يجعل من النَّموذج الغربيّ نموذجًا لحضارة تختلط فيها النَّزعة الدّينيَّة والعِرقيَّة بما هي نزعة تقوم على التَّفوُّق والإعلاء

1 - Karl lowith, histoire et salut, p14.

٢ - عبد الإله بلقزيز، الاستشراق والمركزية الأوروبيَّة ، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية الإلكتروني.

الَّذي تدعمه بالاصطفاء المسيحيّ، أو التَّفوُّق التَّاريخيّ.

لقد نبَّه (وائل حلاق) بدوره، إلى ما يحمله مفهوم التَّقدُّم من تعصّب فكريّ أيَّ تصوُّر لمسار التَّاريخ خارج التَّصوُّر التَّصاعُديّ، «تنبني نظريَّة التَّقدُّم، الدوغمائيَّة والمُفتقدَة للارتباط بالواقع، على افتراض أنَّ للزَّمن بنية غائيَّة متجانسة، وأنَّ هذه البنية حتميَّة، وأنَّ أطوار التَّاريخ الباكرة كانت إذًا تمهيدًا للأطوار اللاحقة الَّتي تُعتبر -بدورها وببساطة- طريقة الوُصول إلى قمَّة الارتقاء الإنسانيّ المرجوَّة: ألَا وهيَ الحداثة الغربيَّة»[1].

■ المبَحَثُ الثَّاني: أَهمُّ النَّظريَّاتِ الفَلسفيَّة الَّتي تُؤرّخُ للعُنصُريَّة الثَّقافيَّة

إنَّ الإطارَ المُحدَّد لطبيعة التَّعايُش الدَّوليّ، يقوم على أساس القوَّة والهيمنة والسَّيطرة، وهو ما تؤكّده مُجريات العالَم اليوم، الَّذي يعيش على تغوُّل الدُّول الغربيَّة بشكلٍ لم يسبق له مَثيل، تغوُّلٌ يقوّيه تحالف وتماسكٌ عرقيٌّ ودينيٌّ، يستبطن التَّوجُّهات السّياسيَّة والاقتصاديَّة

١ - وائل حلاق: «الدولة المستحيلة الإنسان والسّياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي»، ص٥٣.

الغربيَّة، وهو منطق يؤسّس قيادةَ العالَم والخضوع لتوجُّهاته وفق منطق امتلاك القوَّة؛ هذا الامتلاك الَّذي ساهمت فيه التّقنية والعلم؛ فقد «تضمَّنت الأدبيَّات الغربيَّة مُتغير القوَّة، على أساس أنَّه القُدرة في التَّأثير على الآخر في سلوكيَّاته وتحرُّكاته وتوجُّهاته، ممَّا يجعله تحت هيمنة الطَّرف المُؤثّر، خصوصًا إذا امتلك الطَّرف الأوَّل عناصر القوَّة العسكريَّة والاقتصاديَّة، وهو مايحدث حاليًا في الواقع الدَّولي»[1]. فنصير أمام تحالُف غربيّ يحتكم للهويَّة القوميَّة والدّينيَّة في مواجهة باقي الشُّعوب غير الغربيَّة، هذه المواجهة الَّتي تتَّخذ أشكالاً متعدّدة تتراوح بين المواجهة أو المُراوغة أو الانصياع بشكلٍ تام. لهذا فـ«إنَّ الخطابات الأدبيَّة والفِكريَّة والسّياسيَّة الغربيَّة، مثَّلت الذَّات والآخر تمثيلاً مُتحيّزا؛ حيثُ وضعت الذَّات في إطارٍ من التَّعالي والفوقيَّة، في حين وضعت الآخر في إطارٍ من الانتقاص والدونيَّة، واستخدمت في ذلك آليَّات خطابيَّة عديدة مُمتَثلة للمرجعيَّات السّياسيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة»[2]. إنَّ الحديث عن العنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة الممتدَّة في التَّاريخ إلى عالمنا المُعاصر، تستمدُّ توجُّهاتها الأساس عبر عدَّة نماذج لمدارس ونظريَّات

---

١ - دحمان عبد الحق: تجليات ظاهرة القوة في الفلسفة الغربية والإسلامية، ص١٦.

٢ - غزلان هاشمي: التَّحيز الأيديولوجي في التَّمثُّلات الخطابية الغربية، موقع ديوان العرب.

وتوجُّهات فكريَّة ومعرفيَّة، نَحت في بعض أوجهها منحى المُقاربة المعياريَّة، منها: فلسفة القوَّة، والفلسفة الماديَّة، والفلسفة التَّحليليَّة، والفلسفة الأنجلوسكسونيَّة (Anglo-Saxons). فكيف تمأسست هذه التَّفاضُليَّة الثَّقافيَّة، في ظلّ هذه المدارس ذات البُعد المعرفيّ؟

تشكّلت العنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة نظريًّا -بمعنىً ما- وفق مجموعة من المدارس من أبرزها فلسفة القُوَّة، الَّتي قد نجد جذورًا لها في الفلسفة اليونانيَّة والمسيحيَّة، غير أنَّ بذورها الواضحة تجلَّت خلال حركة النَّهضة، وهي فلسفة جاءت ترجمةً لردّ فعلٍ تجاه سياق الحروب الأهليَّة آنذاك، ويُمثّل كلّ من (مكيافلي وهوبز وهيجل)، الثُّلاثيُّ الرئيس لمأسسة القوَّة كخلفيَّة ثابتة في بناء النُّظم السّياسيَّة المُطلقة، وفي «العصر الحديث يأتي على رأسه (توماس هوبز) أبرز من تحدَّثوا عن القوَّة في هذا العصر، الأمر الَّذي جعل نظريَّته -إلى جانب من سبقه- تُعدُّ مقدمة للنَّظريَّات الشُّموليَّة في الحُكم»[1].

إنَّ مفهوم الدَّولة الوطنيَّة المؤسَّسة على إطلاقيَّة سُلطويَّة، امتدَّ إلى مستوى العَلاقات الدَّوليَّة؛ حيثُ تُسيطر الدَّولة على باقي التَّوجُّهات الدَّوليَّة، في إطار يحضر فيه دور فعَّال لكلّ من الهويَّة والثَّقافة والدّين

---

١ - فضل الله محمد إسماعيل: فلسفة القوة - أصولها وتطورها في الفكر السياسي الغربي وآثارها في عالم السياسة-، ص٩.

الغربيّ. وقد يكونُ هذا المزج، هو ما يعكس طبيعة فلسفة القوَّة في الفِكر الغربيّ المُعاصر، مثال: (ريمون آرون، وحنا إرندت، وهانسو مورغانتو، وماكس فيبر). وقد «نُلاحظ أنَّ القوَّة تمَّ ربطها بالمصلحة والسُّلطة في إطار الهيمنة والسَّيطرة على الآخر، حتَّى يتمَّ توجيهه والتَّحكم في سلوكاته، وهو الأمر السَّائد في الواقع الدَّوليّ الحالي، فالقُوى الَّتي تمتلك عناصر قوَّة أكبر، تؤثّر على الأطراف الضعيفة على النَّحو الَّذي يخدم ويُحقّق مصالحها»[١].

ويمُكن القول إنَّ فلسفة القوَّة يُحرّكها مطلب المصلحة والمنفعة بالدَّرجة الأولى، وأيضا الازدواجيَّة في المعايير وتغيُّر ميزان القوَّة والمصلحة، بين التَّوجُّه الدَّاخليّ والتَّوجُّه الخارجيّ. لهذا «فإنَّ سياسة الديمقراطيَّات الغربيَّة، وإن كانوا يتظاهرون بالتَّمسُّك بالمُثلِ العُليا في ميدان السّياسَة، فإنَّهم قد فاقوا وصايا (مكيافيللي) في الغش والخِداع السّياسيّ، وفي استخدام القوَّة الغاشمة في عَلاقاتهم بالدُّول الأخرى، بل وفيما بينهم»[٢]. وقد يكون ما يعيشه المُشترك الكونيُّ اليوم، من تعاظُم قوى السَّيطرة والتَّحكُّم أكبر شاهد على ذلك، تجدر الإشارة إلى

---

١ - دحمان عبد الحق: تجليات ظاهرة القوة في الفلسفة الغربية والإسلامية، ص١١.

٢ - فضل الله محمد إسماعيل: فلسفة القوة، ص٣٢.

السَّيطرة والهيمنة الغربيَّة في نموذجها الأمريكيّ، اليوم تمارس سُلطتها وهيمنتها بكثير من التَّصادُم أو الاستعلاء المُتحكّم في العَلاقات الدوليَّة بشكلٍ مباشر وواضح.

هذا التَّوجُّه الخالي من القِيَم الثَّقافيَّة، قد ترتبط -كما هو شائع- بفلسفة القوَّة عند الفيلسوف الألمانيّ (فريديرك نيتشه)، وهو ما يُقال إنَّ النَّازيَّة تمثّل نموذجًا حيًّا للفكر «النيتشوي»، ممَّا يرسم بُعدًا للعنصريَّة من خلال عمليَّة ربطها بالأبعاد السّياسيَّة والقياديَّة للعالَم، غير أنَّ «التَّعصُّب والعنصريَّة موجودان أيضًا في نصوص أخرى لدى كثير من المُفكّرين وليس فقط (نيتشه)، لكن فكرة القوة هذه واضحة أيضًا في جينيالوجيا الأخلاق؛ حينما يتحدَّث عن أخلاق القوَّة وأخلاق الضَّعف. أخلاق السَّادة وأخلاق العبيد»[1].

لكن في ظلّ الفلسفة الماديَّة، تشكَّلت الأرضيَّة التَّأسيسيَّة للعديد من الفلسفات الحديثة منها: الماركسيَّة والبرجماتيَّة والداروينيَّة. فهي -بمعنى ما- الإطار المرجعيُّ لرؤيتنا للتَّاريخ والتَّقدُّم وللعَلاقات الدَّوليَّة، وهي بالأغلب تربط في كثير من الأحيان بين التَّوجُّه الحداثيّ العقلانيّ والمسار التاريخي التقدمي التَّصاعُديّ، ما دام أنَّ «الفكر العِرقي الغربي

---

١ - عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الأوروبية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية الإلكتروني.

هو فكرٌ تطوريٌّ؛ إذ يرى أنَّ الانسان الأبيض هو آخر حلقات التَّطوُّر وأعلاها، ولذا فله حقوق معيَّنة»[١]. فيصير الكلُّ التَّاريخيُّ مرهونًا بالغرب بما هو مهد الحضارة ومنتهاها، كأنَّنا أمام حلقة تاريخيَّة معزولة عن العالَم، تسير في مسار غربيّ وتنتهي عنده دون غيره. تجدر الإشارة إلى أنَّ الفلسفة الماديَّة قد استفادت بشكل كبير من النظريَّة الداروينيَّة؛ لأنَّ «الفلسفة الداروينيَّة تُشكّل اللبنة الأساس في الرُّؤية الغربيَّة الحديثة للعالَم، وقد شكَّلت هذه الفلسفة الماديَّة الإطار المعرفيَّ لما نسمّيه الرُّؤية المعرفيَّة العلمانيَّة الإمبرياليَّة»[٢]. في إطار استلهام مفهوم الانتقاء الطَّبيعيّ ومفهوم التَّطوُّر، وهو ما أطَّر طبيعة الفكر الغربيّ في عمليَّة توجُّهه نحو باقي الشُّعوب، فهو يُمثّل قمَّة التَّطوُّر الَّذي يمنحه أمرين قيادة العالم ورسم مسارٍ ثقافيّ على غِرار مساره.

ممَّا ساهم في اختزال الكائن البشري في المادَّة/ الطَّبيعة؛ إذ يسري عليه ما يسري على الطَّبيعة في انفصالٍ تامّ عن الخُلُقيّات والقِيَم الإنسانيَّة، بل يتمُّ إنتاج المنظومة القِيَميَّة وفق هذا المنحى، فيفقد إنسانيَّته وتنزع قداسته، لهذا يتوجَّه الإنسان بصورة مركَّزة نحو خدمة مصالحه ومنافعه الماديَّة وبقائه المادّيّ، «فقد اعتبر (ماركس) التَّقدُّم

١ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٠٤

٢ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٠٥.

التّكنولوجيَّ الَّذي جلبته الرأسماليَّة، مرحلة أساس للتَّحرُّر البشريّ. ولذلك يرى أنَّ محدوديَّة الماركسيَّة تتعلَّق بانغماسها الشديد ببارادِيم 'نموذج فكري –Paradigma ' التَّقدُّم العلميّ والتّكنولوجيّ والهيمنة البيضاء، كما هو الحال في البَارادَيم النيوليبرالي. ولهذا يعتقد (أندروز) أنَّ الماركسيَّة ليست سوى وجهًا مقلوبًا لمنطق الهيمنة الفِكريَّة البيضاء»[1]. وقد تُشكّل الصُّورة الاستعماريَّة الَّتي قادتها أوروبَّا لتَغذية احتياجاتها وتقوية سلطتها أبرز مثال، حتَّى وإن لبست رداء الوصاية الإنسانيَّة الَّتي تسعى لنشر الحضارة والتَّقدُّم وتخليص البشر من البربريَّة والهمجيَّة، أو هكذا عملت على تصنيفهم، فخلف الشّعارات الجذَّابة للحضارة الإنسانيَّة، تثوي (توجد) مبررات استغلال الإنسان وموارده، الَّتي تقوم على أساس مبادئ تعسُّفيَّة[2].

غير أنَّ تغليب كفة المصالح أفرز عنصريَّةً مقيتةً، أساسها مركزيَّة الكائن الغربيّ الأبيض، فـ«بدلاً من مركزيَّة الإنسان في الكون، تظهر مركزيَّة الإنسان الأبيض في الكون، وبدلاً من الدّفاع عن مصالح الجنس البشريّ بأسره، يتمُّ الدّفاع عن مصالح الجنس الأبيض، وبدلاً من ثُنائيَّة

---

١ - عبد الله سامي أبولوز: مراجعة كتاب خدعة الحضارة الغربية- أشكال العنصرية والاستعمارية المعاصرة، لصاحبه كايندي أندروز-، موقع ultrasawt.

2 - Anne Claire Orban, peut-on encore parler de racisme, analyse des discours d'exclusion et des mécanismes de rejet, p31.

الإنسان والطَّبيعة وأسبقيَّة الأوَّل على الثَّاني، تظهر ثنائيَّة الإنسان الأبيض في مُقابل الطَّبيعة/ المادَّة وبقيَّة البشر الآخرين، الَّذين يصبحون جزءًا لا يتجزَّأ منها، وتظهر أسبقيَّته وأفضليَّته عليهم»[١]. ومن ثمَّ اُعتُبر العالَم امتدادًا توسُّعيًّا لأوروبَّا، وهو امتداد يجب أن يخدُم أوروبَّا دون غيرها؛ إذ تمثّل النَّازيَّة والاستيطان الفلسطينيُّ أوج الفلسفة الماديَّة الغربيَّة؛ لأنَّها ترجمة للإنسان بصفتها مادّةً منزوعة القِيَم الإنسانيَّة. وبالتَّالي تترجم توجُّها إمبرياليًّا ماديًّا وتوسُّعيًّا استيطانيًّا بشكل كاسح ومتجدّد، فالقوَّة هي المعيار الخُلُقيّ للماديَّة المُؤسّسة وفق التَّوجُّهات الإمبرياليَّة. «وهكذا، فإنَّ هذه الرُّؤية قد حوَّلت الإنسان الغربيَّ إلى مستغلٍّ يلتهم الكون، وحوَّلت الطَّبيعة وبقيَّة الشعوب إلى مُجرَّد مادَّة استعماليَّة تُوظَّف وتُسخَّر»[٢]. فصار العالَم مُقسَّما إلى جنوبٍ يُوفّر الموارد الرئيسة والثَّروات الطَّبيعيَّة لدول الشَّمال، الَّتي تقود الرَّكب العالميَّ نحو أهدافٍ تقدميَّة تخدُم بالدَّرجة الأولى الإنسان الغربيَّ.

إنَّ الوضع العالميَّ المُعاصر، مرتهنٌ لمحور تقوده العنصريَّة الغربيَّة، الَّتي تفرض سلطتها على باقي الشُّعوب، وقد تمَّ مأسسة هذه السَّيطرة وفق هياكل منظمةٍ يتحكَّم في بنيتها العِرق الأوروبيّ، «ممَّا أدَّى إلى

---

١ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية، ص١٠٦-١٠٧.

٢ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية، ص١٠٧.

إنشاء ثلاث مؤسَّسات عالميَّة تُلقَّب بالثَّالوث المقدَّس: منظَّمة الأُمم المتَّحدة، وصندوق النَّقد الدَّولي، والبنك الدَّولي، الَّذي يُلقي في قلب دول العالم الثَّالث الرُّعب. لقد أصبح الثَّالوث واجهة النّظام المُحدث للإمبرياليَّة الغربيَّة»[1]؛ إذ تمَّ استخدام الواجهة القانونيَّة والقِيَميَّة العالميَّة لخدمة الإنسان الغربيّ على حساب الإنسان غير الغربيّ، فقد حاول بقدر الإمكان، تسطير مسارٍ مُستقبليّ لاستمرار هيمنته الكونيَّة؛ فـ«قد دعم الإنسان الغربيُّ دعوى المركزيَّة لنفسه بمجموعةٍ من النَّظريَّات الخاصَّة بعالم الأخلاق والهويَّة والحضارة، تدور في إطار المرجعيَّة الماديَّة الكامنة وتُؤكّد تفوُّقه، وهذه النَّظريَّات هي ما يُطلق عليها النَّظريَّة العنصريَّة، الَّتي شكَّلت إطارًا شاملاً لرؤية الذَّات والحضارة والسُّلوك»[2]. فأصبحت البنى المعرفيَّة تفقد جوهرها العلميَّ لصالح الرُّؤية العنصريَّة، الَّتي تؤطِّر مُجمل الأبعاد المعرفيَّة المُستقبليَّة برؤية أيديولوجيَّة تخدُم الغرب بالأساس.

إنَّ سطوة الماديَّة انتقلت إلى مفهوم اللُّغة في ظلّ الفلسفة التَّحليليَّة، فقد ركَّزت بشكلٍ كبير على وحدة العلم التجريبيّ بما

---

١ - عبد الله سامي أبولوز، مراجعة كتاب خدعة الحضارة الغربية - أشكال العنصرية والاستعمارية المعاصرة-، موقع ultrasawt.

٢ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٨١.

هو محدَّد الحقائق، الأمر الَّذي أفقد البُعد الميتافيزيقيَّ الخُلُقيّ والإنسانيَّ دوره؛ لأنَّها لا تؤسّس لأيّ معنى، فكل مايخرج عن العالم الفِعليّ والواقعيّ المُسيَّج بأهداف قابلة للتَّرجمة إلى واقع، يصير دون معنى. فلم تعُد فسحة التَّدبُّر للفعل الإنسانيّ يحمل أهميَّة، على خلاف ما كان عليه الأمر الخُلُقيّ والدّينيُّ في الإطلاقيَّة التَّقليديَّة، بل تمَّ حصرها وفق أهداف ومبادئ منطقيَّة، تُسيّج عمليَّة التَّداول والتَّواصل وفق الارتباط بالواقع. بالتَّالي لم تعد مجرد تصوُّر يُبنى على افتراضات أو مُعطيات تجريبيَّة، كما كان الأمر خلال الأزمنة الحديثة، بل أصبحنا أمام عالم مفاهيميّ وسلوكيّ، يُبنى على الاستخدام اللُغوي المُتعارَف عليه، هذا المُعطى هو أساس ومرجع التَّعامل، لأنَّ خارج هذا المُعطى لايوجد شيءٌ قد يفيد في فَهم العالم أكثر من مُكوّناته الكائنة فيه، هي عمليَّة التَّركيز على العالم الَّذي ينضوي تحته الإنسان والطَّبيعة، أي عمليَّة تحملُ بُعدًا قصديًّا مُحدَّدا، يتَّجه نحو الدلالة الماديَّة والواقعيَّة؛ لأنَّ السّياق البرغماتي للمُجتمعات الدّيموقراطيَّة ما بعد الحداثيَّة، استوجبت التخلُّص أو التقليل من أهميَّة التَّأمُّل الفلسفيّ لصالح الرَّفع من واقعيَّة التَّواصُل اللُغويّ، «وهي قد تبدأ مع المُتطلّبات البرغماتيَّة للمُجتمعات الديمقراطيَّة القائمة، محاولة إظهار كيف يجب أن يكون لمصالحها وتقدُّمها السَّبق على التَّأمُّل الفلسفيّ، الذي -وإن كانت له قِيمة يومًا

ما- لم يعُد له اليوم دور سوى تحريف أو إرباك التزام الأفراد تجاه المُجتمع المَفتوح»[١]؛ إذ لا حاجةَ لعالَم يعيش على التَّفوُّق العلميّ والتّقني بالميتافيزيقا، ما دامت لا تُساهم في توسيع القوَّة والسَّيطرة، فـ«المنهج التَّحليليُّ لم يكتفِ بالتَّحليل اللُغوي فقط، بل تجاوز ذلك إلى البحث في ماهيَّة العُلوم، من حيثُ تطابقها مع الواقع؛ إذ مقياس نجاح النَّظريَّات والأفكار مرتبط بمدى تطبيقها في الواقع، وليس ما يمُكن أن يتحقَّق»[٢]. إنَّ التَّوجُّه الماديَّ قد امتد إلى مُكوّنات اللُغة، ممَّا يعني السَّعي نحو عالَم يتطابق مع العالم دون الانزياح خارجه؛ إذ كان هناك ميلٌ -خصوصا في المدرسة التَّحليليَّة المنطقيَّة- نحو التَّكامُل مع العالم المادّيّ.

في حين تمُثّل الفلسفة الأنجلوساكسونيَّة، انتفاضةً كُبرى في وجه الفلسفة القاريَّة ومناهجها ومبادئها، فقد تمَّ بفضلها، إحلال الوظيفة محلَّ مفهوم الجوهر، صحيح أنَّ امتدادها تَشكَّل منذ القرن السَّابع عشر مع (بيكون) ممَّا يدلُّ على الامتداد التأسيسيّ للفكر الأوروبيّ في ثنايا هذا الفِكر، لكنّه استطاع أن يُؤسّس توجُّهًا عِمليًّا وضعيًّا، لا

١ - ف.ل.جاكسون: مابعد الحداثة وإحياء التقليد الفلسفي - مابعد الحداثة-، ص١٥٠.

٢ - شريف حسني خليل: «منهج التحليل الفلسفي بين هدم الميتافيزيقا وإرساء اللغة العلمية»، ص٢٦.

يبتعد عن الفِكر الملموس والواقعيّ، على خلاف الفلسفات التَّأمُّليَّة والميتافيزيقيَّة، «فالفلسفة في العالم الأنجلوساكسوني أساسًا، لا تقبل التَّأمُّل النَّظريَّ والتنظيرات العموميَّة الكُبرى، على طريقة (فريديريك هيجل) مثلاً أو (كارل ماركس) أو (أوغست كونت) أو (مارتن هايدغر)، فهي تبتعد عن التَّأمُّلات والشطحات الفلسفيَّة، وتنفر من الأنظمة الفِكريَّة الشُّموليَّة الَّتي تفسر كلَّ شيء وتتحدَّث عن كلّ شيءٍ، وتفضّل غالبًا الفلسفةَ المتواضعة الَّتي تبحث فيماهو كائن في الواقع»[1]. لقد تمَّ الانتقال من رسم ما ينبغي أن يكون إلى التَّوجُّه بشكلٍ مركَّز إلى ماهو كائن؛ ممَّا أفقد الأمرَ الخُلُقيّ والدّينيَّ فائدته وجدواه، «وبدلاً من أن يكون الهدف من الوجود في الكون هو تحقيق مصلحة الإنسان، أصبح الهدف هو تحقيق مصلحة الإنسان الأبيض، وبدلاً من الإيمان بأسبقيَّة الإنسان على الطَّبيعة، أصبحت المسألة هي أسبقيَّة الإنسان الأبيض على الطَّبيعة وبقيَّة البشر»[2]. فرُتِّب الوجود والموجود وفق الإرادة الغربيَّة، عبر تحيُّز معرفيّ أدرج وفق التَّوجُّه الأيديولوجي الغربيّ، ومن ثمَّ العمل على تغييب الآخر غير الغربيّ، أو جعله حقلاً لامتدادِه الوُجوديّ في شِقّه النَّفعي والاستغلاليّ.

---

١ - زروقي ثامر: «الفلسفة الأنجلوسكسونية - المفهوم والخصائص-، ص٧٣.

٢ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٨١.

تمُثّل أيضًا المدرسة الاستشراقيَّة[١]، خصوصًا الَّتي رافقت الحركات الاستعماريَّة، بُعدًا معرفيًّا للعنصريَّة الثَّقافيَّة، لكن مع ذلك وجب التَّمييز هنا، بين الاستشراق الوسيطي الَّذي حمل بُعدًا -بمعنى ما- إيجابياً لأنَّه ارتكز على المُقاربة المعرفيَّة، الَّتي عملت على الدّراسة الفيلولوجيَّة للتُّراث الإسلامي، بالأخص الاستشراق الألماني، والاستشراق المتُولّد عن الحركات الإمبرياليَّة الَّتي غلَّبت الجانب المعياريَّ ذا الشُّحنة الإيديولوجيَّة التَّوسُّعيَّة، والَّتي تتبنى -بشكلٍ لافت- المقاربة المانويَّة، الَّتي تحدّد ثنائيَّة مُتعاكسة تقوم على الغرب والشَّرق، التَّخلُّف والتقدُّم. «فهذا الاستشراق الَّذي أسمّيه بالاستشراق الكلاسيكيّ، هو أياد بيضاء على الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة من جهة التَّحقيق والتَّرجمة والنَّشر، طبعًا هذا الاستشراق هو وليد الحركة الإنسانيَّة (humanism) في أوروبَّا، واهتمَّ بالنَّواحي الفيلولوجيَّة (Philology)، وهذا ظاهر في الاستشراق الألمانيّ»[٢]. فهناك استشراقٌ غلَّب الجانبَ المعرفيَّ

---

١ - «من الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق، وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أنَّ الغرب يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرَّسمي بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي في عام ١٣١٢ بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبيَّة»؛ محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص١٨

٢ - فوزي البدوي: طروحات حول الاستشراق وتدريس المسألة الدينية في الجامعة، موقع مؤمنون بلاحدود.

الفيلولوجي وهو الاستشراق الوسيط، والاستشراق الَّذي غلَّب الشحنة الأيديولوجيَّة أبعدته عن النَّاحية المعرفيَّة، بل وجعلت من هذه الأخيرة خادمة مطيَّة للأولى.

إنَّ استشراق ما بعد الحداثة، هو استشراق متأثّر بالفِكر التَّاريخيّ والتَّطوُّريّ أو الفِكر الغربيّ السَّامي، أقرب لاستشراق يحمل نبضات عنصريَّة واستعماريَّة، يقوم على تصنيف تفاضُليّ، يرفع من الثَّقافة الغربيَّة على حساب باقي الثَّقافات، خصوصًا غير الإسلاميَّة واليهوديَّة، أذكر هنا إرنست رينان (Ernest Renan)، الَّذي كان «متأثّرًا بالمدرسة التاريخيَّة، وبفكرة المُفاضلة ما بين الألسن والثَّقافات والحضارات وغيرها. كان له قدر ما من الشُّعور بالحاجة إلى الحطّ من قِيمة الثَّقافة العربيَّة، وهذا كان واضحًا، رغم أنَّ دراسته عن (ابن رشد) دراسة لامعة تعود إلى ١٨٨٢م؛ أي أكثر من قرن ونصف»[1]. وقد كان لـ(إدوارد سعيد) و(أنور عبد الملك) نصيبٌ في التَّوسُّع في الإشارة إلى هذا الانزياح غير المعرفيّ، الَّذي عرفه البحث الاستشراقيُّ، لهذا لا يجب الخلط بين االمستشرقين؛ فالأوَّل خدم التَّوجُّه العلميَّ، خصوصًا فيما يخصُّ التُّراث وعمليَّة التَّحقيق للنُّصوص الإسلاميَّة، وهو ما مثَّله من

١ - عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الغربية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية.

كان لهم محرك معرفيٌّ بالدَّرجة الأولى؛ إذ «هؤلاء كان حافزهم الفضول العلمي. وهؤلاء الَّذين استفدنا منهم في التَّحقيق. لذلك لا ينبغي أن يغمط أحد حقَّ هذا التيَّار الَّذي أُسمّيه التيَّار العلميَّ في الاستشراق»[١]. أمَّا الاستشراق الثَّاني، هو الَّذي استُخدم كمطيَّة معرفيَّة لبلوَرة العنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة.

هناك أيضًا المدرسة التَّاريخيَّة، وهي على صِنفين: الحداثيَّة الَّتي تكفُل ترجمة مسارها التَّقدُّمي للجنس الغربيّ وفلاسفة التَّاريخ، بالأخص الوعي الألَمانيّ المُتمثّل في (كانط، هيجل، ماركس، ...). أمَّا ما بعد الحداثيَّة فهي الَّتي ترنو ربط نهاية التَّاريخ بالغرب السّياسيّ، وقد يكون فوكوياما (Fukuyama) أهمَّ من حاول القيام بتجديد الفِكر «الهيغيلي» بنوع من توحيد التَّقسيم «الجيوسياسي تحت القناع الفلسفيّ المستعار، تقسيم الإنسانيَّة بحسب فرز الثَّقافات إلى ما يمتُّ رجعيًّا إلى التَّاريخ، وإلى ما تقدَّم منها نحو ما بعد التَّاريخ. هذا بالرغم من أنَّ مبدأ التَّقسيم لم يجر تعمُّقه بالذَّات. وقد ظلَّ مواربًا كمثليه من أقنوم نهاية التَّاريخ»[٢]. فعمليَّة تقسيم التَّاريخ تُوافق التَّقسيم الكلاسيكيَّ للعالم الغربيّ والعالَم غير الغربيّ؛ حيثُ نهاية التَّاريخ تخصُّ الغرب؛ لأنَّه هو

---

١ - عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الغربية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية.

٢ - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والانسان الأخير، ص١٧.

من دخل التَّاريخ، وهو من سيقوده نحو نهايته، على خلاف من ظلَّ خارج أو على مشارف التَّاريخ للأبد، «فالموعودون بجنَّة نهاية التَّاريخ هم القبيلة البيضاء والشَّقراء وحدها 'وربمَّا الصفراء كذلك'، مجتمع النّمور النيتشوي. أمَّا الآخرون -معظم الانسانية- فلم يعد تصنيفهم في خانة المتخلّفين يكفي للتّعبير عن رحلة التَّصفية الأخيرة؛ إذ إنَّ هذا المصطلح سيظل يوحي باستمرار رسالة المُتقدّم في الأخذ بيد المتخلّف 'عبء الإنسان الأبيض»[1]. إنَّ الأمر أشبه بإعادة استثمار لعلاقة العبدِ والسيّد، وفق عمليَّةٍ استبداليَّة تقوم على رسم هدفٍ خيرّ يُحرّك الإنسان الأبيض تجاه الآخر غير الغربيّ، فتحضر العلاقة، لكن يتمُّ تغليفها بأفق خيرّ.

إنَّ المُلاحظ أنَّ المشترك ما بين كل هذه المدارس، هو التَّخلي عن الوازع الدّيني أو الخُلُقيّ، واستحضار الوازعِ الماديّ النفعيّ التَّقدُّمي، الَّذي يخدُم استكمال المسارِ التَّاريخيّ الغربيّ، خصوصًا التَّوجُّه الإمبرياليُّ (Imperium) الرَّأسماليّ، ممَّا يضعنا أمام فقدان البوصلةِ الخُلُقيّة والدّينيَّة، وهو الأمر الَّذي يضع غير الغربيّ أمام انجراف هُويّتي لم يسبق له مثيل؛ حيثُ «فيما يتعلق بالمنظومة الخُلُقيّة وأسلوب الحياة: يتمُّ في المرحلة الأولى توليد منظومات خُلُقيّة ماديَّة (اشتراكيَّة أو

١ - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والانسان الأخير، ص٢٠.

رأسماليَّة) يؤمن بها الإنسان الرأسماليُّ أو الاشتراكيُّ، ولكن مع التَّزايد التَّدريجيّ يصبح من المستحيل الإيمان بأيَّة قِيمة، ممَّا يعني اختفاء النَّزعة النّضاليَّة البطوليَّة، وتلاشي النَّزعة الطوباويَّة (Utopanism) وكل الأحلام المثاليَّة، ويرفض الإنسان أرجاء إشباع اللذَّة الفرديَّة. وهو ما يطلق عليه ليوتار (Lyotard) غياب الأيديولوجيَّات الكُبرى»[1]. مما أفقد الإنسان معنىً قِيَميًّا لتواجده، وغلَّب بالمقابل الطابعَ الماديَّ الجافَّ.

تجدُر الإشارة، إلى أنَّ العنصريَّة الثَّقافيَّة الَّتي ينهجها الكائنُ الغربيُّ تتغذى على بِنية مُعقَّدة تجعل كُلفة تجاوزها، أو الوقوف في وجهها مستحيلة الدَّفع أو على الأقل بعيدة المنال، لهذا يبدو أنَّ الطَّريق الأيسرَ نحو الخلاص لأغلب دول الجنوب، هو الانخراط ضمن هذا المسار الَّذي يقوده الغرب. لأنَّنا نتكلم عن منطق عنصريَّة مدعومة بالتَّفوُّق العلميّ والاقتصاديّ والعسكريّ، وبما أنَّ الكفةّ غير متوازنةٍ، والقيادةَ محسوم أمرها حاليًا على الأقل، فإنَّ أمر الانصياع يبدو في الغالب، هو الحلُّ الأنسب لجُلّ الأنظمة السّياسيَّة للدُّول الَّتي تُصنّف في مرتبة غير الغربيَّة، ما دامت هذه الدُّول عاجزة عن خلق تحالفٍ أو نهضة موازية

---

١ - أحمد عبد الحليم عطية: عبد الوهاب المسيري- دراسة في سيرته المعرفية ونقده لقيم الحداثة الغربية-، ص ١٠١.

للوجود الغربيّ. إنَّ الغرب لم يتخلَّص من الطمُّوح الاستعماريّ، بل عمل على خلق «نيوكولونياليَّة» جديدة أكثر عنصريَّة ووحشيَّة. وبالتَّالي فإنَّ راهننَا يعيش على أشكال محايثة للواقع السّياسيّ العالميّ منها: الرَّأسماليَّة (Capitalism)، والليبراليَّة (Liberalism)، والقطبيَّة الدوليَّة، ومن ثمَّ، فإنَّ «أوَّل المفاهيم هو العنصريَّة الرَّأسماليَّة، يربط المفهوم بين العنصريَّة والرَّأسماليَّة المُعاصرة في الولايات المتَّحدة، باعتبارها تمثيلاً لقلب النّظام العنصريّ الحاليّ، واستمرارًا لميراث النّظام العالميّ العنصريّ القديم. أمَّا ثاني المفاهيم فهو الحنين إلى الماضي الاستعماريّ»[1]. فانتقلنا من المركزيَّة الأوروبيَّة إلى أمركة العالَم؛ حيثُ صِرنا أمام قوَّة غربيَّة الانتماءِ والهويَّة، تُسيطر على العالم وتقوده بشكل مُتسارع ومتواتر، لهذا يُمكن القول إنَّ «أمريكا فرضت نفسها كقوَّة على العالَم، وما تقوله يسري على كل الغربيّين الأوروبيّين وغيرهم من صغارها. المصلحة تقتضي أن تكون الدَّولة اسمها الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، تفرض المعايير الكونيَّة، وشريعة القوَّة. شريعة الأقوى؛ هي الَّتي تفرض نفسها، وهؤلاء الصغار يرتضون هذه الشريعة، وأن يسهموا هم أيضًا في تطبيقها وتقديم السُّخرة لهذا

---

١ - عبد الله سامي أبو لوز، مراجعة كتاب خدعة الحضارة الغربية - أشكال العنصرية والاستعمارية المعاصرة-، موقع ultrasawt.

السيّد الكبير؛ في تقديمها»[1]. فمنطق القوَّة يفرض علاقةً تراتبيَّة بين طرفين يتوجدان على طرفي النَّقيض من بعضهما، لهذا ستنحو العلاقة نحو علاقة السيّد والعبد، وإن أُلبست هذه العَلاقة عدَّة مفهوميَّة مُغايرة عمَّا كانت عليه قديمًا.

■ المَبحَثُ الثَّالثُ: المنهَجُ التَّاريخِيُّ الحَداثِيُّ دُعامَةٌ لترَسيخِ العُنصريَّةِ الثَّقافيَّة

لم تتشكَّل العنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة دفعةً واحدةً، بل رسمت نمطًا لمسارها التَّاريخيّ الَّذي عبرَّت عنه بالمسار التَّصاعُديّ نحو الهدف النّهائي، هذه الصَّيرورة الَّتي ارتبطت بنمط تأويل الأحداث، وكذا تضمينها معنى أو دلالة ترتبط بفعاليَّة ونُبوغ العقل الغربيّ، فنمَّى الشُّعور بالتَّميُّز الَّذي يمنح الذَّات مركزًا في مقابل الآخر، وهو مسار رافق مختلف مراتب حقل التَّجربة الغربيَّة، المُعزَّز بأطروحة صناعة التَّاريخ. ولهذا «تتكشَّف طبيعة المحدّدات الَّتي توجّه فاعليَّة العقل الغربيّ، فالهويَّة الغربيَّة تقوم في تفوُّقها على غيرها -منذ العصر الإغريقيّ إلى اليوم- على التَّميز في مكوّنَين: تفوُّق الشَّعب (العِرق)،

---

١ - عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الغربية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية.

وتفوُّق الثَّقافة (الحضارة). وباندماج هذين المُكوّنين بفعل التَّاريخ، بدأ الوعي الغربيُّ يكشف عن نفسه -ليُقدَّم إلى الآخر- مُتمركزًا على ذاته عرقيًّا وثقافيًّا»[١]. إنَّ عمليَّة تجليِّ العنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة أخذت مسارًا تاريخيًّا خطّيًّا نحو تعظيم العقل الغربيّ وإخراجه عن المسار التَّاريخيّ الاعتياديّ، ليحوز بالمقابل على السَّبق في تحقيق التَّقدُّم التَّاريخيّ، وهو الأمر الَّذي تجلَّى بصورةٍ واضحةٍ مع فلسفات التَّاريخ خلال القرن الثَّامن عشر، وقد يكون مفيدًا التَّذكير بالتَّصنيف العِرقيّ لكلّ من (هيجل وكانط)، تصنيف يُبرز عنصريَّة في التَّمييز والانحياز إلى الذَّات الغربيَّة، حتَّى وإن كان الغُلاف الخارجيُّ يستند إلى مفاهيم مثل: القِيَم والسَّلام الإنسانيّ، ممَّا جعل التَّاريخ رهين تفوُّقه وقيادته، فقد «انطوى الغربيُّ على امتيازٍ خاص، فهو الوحيد الَّذي يتطابق مع مشروعه الثَّقافيّ سواء أكان غربيًّا أم شرقيًّا، لأنَّه لايعني بالموضوع القائم بذاته، والَّذي له شروط تكوُّنه الخاصَّة، إنَّما يختلق موضوعه بوساطة خطابه الَّذي تتمركز فيه رؤىً غربيَّةٌ شاملةٌ للعالم»[٢]. فحتَّى محاولة التَّماهي مع المشروع الغربي محكومة مسبقًا بالفشل، لأنَّ الغربيَّ لايرى الآخر قادرًا على تحقيق مشروعه، فنكون أمام خصوصيَّة

١ - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص١٨٨.

٢ - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص١٨٨-١٨٦.

غربيَّة لا تقبل التَّحقُّق، هذه الخصوصيَّة الَّتي يتمُّ رفعها في إطار مشروع تعميميّ يرفع لافتة الكونيَّة.

إنَّ الشُّعور بالتَّجربة الزمنيَّة الحداثيَّة منحت الأوروبيّين إحساسًا بامتلاك التَّاريخ وكذا قيادته، لهذا لم يُشكّل لديهم مصطلح الاستعمار، نموذجًا بشعًا أو أمرًا غير خُلُقيّ، بقدر ما مثَّل مناسبةً لممارسة وصاية تقدُّميَّة على باقي الشُّعوب، وهو ما تتقاسمه كلُّ التّيَّارات الحداثيَّة على اختلاف توجُّهاتها، فـ ستيوارت ميل (Stuart Mill) اعتبر أنَّها مهمَّة نبيلة تستهدف قيادة الشُّعوب المُتخلّفة، قصدَ إيصالها لمرحلة العقلانيَّة والتَّحضُّر؛ «حيث اعتبر (ماركس) أنَّ الاستعمار هو الطَّريقة الوحيدة لنقل المجتمع الهنديّ من البدائيَّة للتَّطوُّر، بسبب سيادة ما سمَّاه بالاستبداد الشرقيّ، الَّذي يمنع وصول المُجتمع إلى المرحلة الليبراليَّة، ويرى (ماركس) أنَّه برغم الألم والظُّلم النَّاتج عن هذا الاستعمار، فإنَّ البقاء في الطُّور البدائيّ للمجتمع ينطوي على أشكال أكثر قسوة وألماً من الاستغلال والاستبداد»[1]. واللافت في الأمر، هو الشُّحنة الإيجابيَّة الَّتي رافقت الأحداث التَّاريخيَّة الغربيَّة لإبراز ارتباطها -بشكل حصري- بأهمّ العتبات التَّاريخيَّة المحدّدة لهذا المسار النَّموذجيّ، مثل: حركة

١ - عصام حمزة: مفهوم الكولونيالية - كيف تستعبد العالم باسم الحرية-، موقع إضاءات الإلكتروني.

الإصلاح الدّيني، والنَّهضة، والأنوار، والثَّورة الفرنسيَّة، والحَداثة، والعقلانيَّة (Rationality)، والفردانيَّة (Individuality). كأنَّنا أمام آليَّة لبناء الأحداث، حتَّى تُحيل على معنى تاريخيّ يرسم فعاليَّة بشريَّة غربيَّة دون سواها. لهذا أُبرزت الأزمنة الحديثة بماهيَّة أزمنة تقدُّميَّة، تحمل آفاقًا انتظاريَّة واعدة، ممَّا ساهم في تسطير آليَّات التَّحكُّم في الحاضر، ومحاولات لاستباق فرض استمرار هذه السَّيطرة في المستقبل، ومن هنا حُدّدت غاية عرقيَّة / دينيَّة نموذجيَّة ضمن مسار التَّاريخ، فصرنا (من وإلى) أي عمليَّة رسم الأفق الإنسانيّ، انطلاقًا من المنظور الغربيّ المتَّجه نحو الخلاص البشريّ، بما هو الأُفق الانتظاريُّ المأمول تحقُّقه؛ حيثُ الغرب هو نقطة الانطلاق وغاية المَسار التَّاريخيّ المحكوم بالتَّقدُّم ومنتهاه، فالتَّاريخ الغربيُّ -وبالأساس الوعي التَّاريخي الحداثيّ- هو مسارٌ ممتدٌّ تراكميٌّ ينمو وفق رؤية تقدُّميَّة، تجعل التَّاريخ الغربيَّ تاريخًا مُميَّزًا عن باقي الثَّقافات الغربيَّة، «إنَّ منهج الوحدة والاستمراريَّة كان حريصًا على تأصيل الظَّواهر الَّتي يدرسها ويحلّلها، ويعيدها دائمًا إلى أصل غربيّ، وقد مارس عمليَّة التَّأصيل المذكورة لنفسه، فرسم بذلك تاريخًا متماسكًا ومطَّردًا له، ليبرهن على صواب فروضه وإجراءاته على نحو مُطلق»[1]. لهذا فالتَّاريخ البشريُّ تمَّ حصره بشكلٍ تعسفيّ على عاملين: عامل الخطّ

١ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص٤٥.

التَّاريخيّ الغربيّ المتَّصل، وكذا طبيعة أو نمط هذا التَّاريخ الَّذي يتَّسم بالضَّرورة بالتَّقدُّم. إنَّ هذين العاملين يعملان بالمُقابل على تغييّب أيّ تاريخ خارج التَّاريخ الغربيّ، وكذا استحالة تحقُّق تقدُّم خارج المعايير الغربيَّة لمفهوم التَّقدُّم.

فتاريخيًّا، يمُكن القول إنَّ فكرة التَّقدُّم قد اقترنت بالأزمنة الحديثة، حين أدرك الإنسان «ما يمكن أن ينجَز عندما وَضعت فكرةُ التَّقدُّم حدًا للإيمان بالدَّائرة المُغلقة أو الرّضا بالواقع»[١] كما هو، وهو إدراكٌ جعل الإنسان يرى في تاريخه عمليَّة تصاعديَّة، فقد أعلن تورغو (Robert Jacques Turgo) -خلال ١٧٥٠م في جامعة السوربون، من خلال سلسلة محاضراته الشهيرة حول مفهوم التَّقدُّم- عن الثّقة الممنوحة من طرف عصر الأنوار للقُدرة الإنسانيَّة في السَّيطرة على الطَّبيعة، وفي قدرته على تحسين بشكلٍ جذريّ الشُّروط الإنسانيَّة[٢]. لهذا وجب على باقي الشُّعوب التَّخلي عن تاريخها وكَسر مسارها التَّاريخي - كيفما كانت طبيعته- لأجل استلهام النَّموذج الغربيّ في إطار خلق إمكانيَّة لتحقيق تقدُّمٍ على غرار التَّقدُّم الغربيّ. ومن ثمَّ، فإنَّ «تفوُّق العنصر

---

١ - ج.ب.بيري: فكرة التَّقدُّم - بحث في نشأتها وتطورها، ص١١.

2 - Jerzy A. Wojciechowski, La modernité et le progrès du savoir, L'agora.

الآري الأبيض على كلّ الشُّعوب الأُخرى، يُعطيه حقوقًا مُطلقة كثيرة تتجاوز أية منظومات قِيَميَّة وأي حديث عن المساواة»[١]. فالحضارات رغم تنوُّعها، فإنَّها يجب أن تمرَّ عبر نفس مراحل الحضارة الغربيَّة؛ لأنَّ الطَّبيعة الإنسانيَّة ثابتة. ومن ثمَّ «يؤدّي ذلك إلى إسقاط القِيَم والمُثل والغايات والخبرة الغربيَّة على العالم، وتعميم النَّظريَّات والمفاهيم في العُلوم المختلفة -خصوصًا العلوم الاجتماعيَّة- دون الأخذ في الاعتبار خصوصيَّات كلّ مجتمع واختلاف الحضارات»[٢]. إذًا، هي رؤية تعميميَّة تُفقد المشترك الكونيَّ غناه، لأجل رفع لافتةٍ غربيَّة واحدة ووحيدة.

إنَّ التَّاريخ الغربيَّ يتمُّ رسمه في إطارٍ مترابطٍ ومتماسكٍ لكلّ عناصره، الَّتي تنهل من المركزيَّة الذَّاتيَّة المكتفية بذاتها، وتُهمّش بالمُقابل كلَّ الشَّوائب غير الغربيَّة، بُغية تحقيق تاريخٍ غربيّ صافٍ ونقيّ وممتد من وإلى الذَّات الغربيَّة، «إذًا، تُحاول كلُّ مركزيَّة أن تختلق ماضيًا مرغوبًا، من خلال خطاباتها المختلفة الَّتي تمُثّل رغباتها الرَّمزيَّة وتطلعاتها، ويتمُّ اصطناع ذاكرةٍ تمتثل لهذا التصوُّر، بما يُضفي رفعةً على الذَّات ودونيَّة على الآخر، ومن هنا، يتمُّ التَّلاعب بالزَّمن الحقيقيّ

١ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص٢٠٢.

٢ - عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، ص١٤٦.

من قبل أصحاب هذه التَّمثُّلات، وذلك بطمس ما لا يُوافق التَّصوُّر المأمول، وإظهار صورة موسومة بالنَّقاء الخالص أمام العالم»[١]. فلم يتوقَّف الأمر فقط على رسم صورةٍ تاريخيَّة غربيَّة تقدميَّة تحمل بعدًا نَموذجيًّا مرغوبًا، بل إنَّ هذا التَّاريخ يخصُّ أو محصور بصورة خاصَّة على العِرق الأبيض الَّذي يملك سمات عقليَّةً وعِرقيَّةً تتجاوز الآخرين، فتتغذَّى هنا العنصريَّة الثّقافيَّة من العنصريَّة العِرقيَّة، «فكانت العنصريَّة العِرقيَّة تقوم على فرضيَّة إرث سمات بيولوجيَّة تُحدّد بدورها الاختلاف الثَّقافيَّ والتَّرتيبَ الكيفيَّ للحضارات»[٢].

إنَّ ربط إمكانية التَّقدُّم بالتَّاريخ الغربيّ، وجعله الإمكان الأبرز والوحيد لنهوض باقي الشُّعوب، يحمل رؤيةً تصنيفيَّةً جوهرُها عنصريٌّ يُقيّم المسار التَّاريخيَّ وفق رؤية ذاتيَّة تمجّد الذَّات وتحتقر باقي الحضارات، «ثمة حدّ فاصل بين نمطين من بني الإنسان، نمط دونيٌّ ومنحطٌّ ووضيع لامعنى لحياته، لأنَّ تلك الحياةَ فعل غير تاريخيّ، ونمط متفوق وذكي ورفيع وسام، وهذا الأخير ينبغي أن يُنسب إليه الفضل في إعلان ولادة التَّاريخ الإنسانيّ»[٣]. بل وتنهج مسارًا إرشاديًّا

---

١ - غزلات هاشمي: التحيز الأيديولوجي في التمثلات الخطابية الغربية، موقع ديوان العرب الإلكتروني.

٢ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، ص٩٦.

٣ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص٣٤٦

يُقدّم العدَّة المفهوميَّة لمعايير بناء التَّجارب التَّاريخيَّة، عدَّة قابلة للتَّنزيل والاستلهام من طرف باقي الشُّعوب، مقابل محو أو إزاحة ماضيهم وتطبيق النَّموذج الإرشاديّ الغربيّ، فتصغى رؤية وحدويَّة للعالم، لا ترى إلاَّ انطلاقًا من زاوية التَّفوُّق الغربيّ، «هذا أيضًا يُشبه رأي (جاك دريدا) ففي إحدى زياراته للصّين ٢٠٠١م، فاجأ مُضيفه الأستاذ في قسم الفلسفة الصّينيَّة بتصريح قائلاً: لا وجود للفلسفة خارج الغرب، وما سوى ذلك هو فكر غير فلسفيّ، ووسط صدمة من الجمهور المستضيف، أصرَّ (جاك دريدا) على موقفه بأنَّ الفلسفة في جوهرها جزءٌ من التَّقليد والثَّقافة واللُّغة اليونانيَّة ولاتنفك عنها، أي أنَّ ماهيَّة الفلسفة أوروبيَّة»[1]. لقد أضفي على الوعي التَّاريخيّ الغربيّ، وبالأخص الحداثيّ، نوعًا من الخصوصيَّة الَّتي تعزله عن باقي العتبات التَّاريخيَّة لجُلّ الثَّقافات الأخرى؛ حيثُ رفعت المركزيَّة الغربيَّة طابعها الثَّقافيَّ إلى مرتبة الفرادة الثَّقافيَّة، الَّتي تنتعش على مبدأ الخصوصيَّة القابلة للتَّعميم والكونيَّة، لهذا على باقي الشُّعوب أن تفقدَ خصوصيَّاتها لتنصهر في الخصوصيَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة الَّتي ترتدي جُبَّة العالميَّة والكونيَّة؛ إذ تمَّ صياغة معايير أو قوالب وصفيَّة جاهزة، لهذا ما على المجتمعات الأخرى الَّتي تريد أن تبلُغ درجة التَّقدُّم الَّتي وصل

١ - برايان فان نوردن: عنصرية الفلسفة الغربية، موقع حكمة الإلكتروني.

إليها الغرب، إلَّا الأخذ بالأسباب ذاتها الَّتي أخذ بها الغربيُّون، وليس أمامها إلَّا التَّخلُّص من خصوصيَّاتها الثَّقافيَّة؛ لأنَّ تلك الخصائص هي المسؤولة عن تخلُّفها، وهي المُعيقة لتطوُّرها على خلاف الخصوصيَّة الغربيَّة الَّتي تُساهم في التَّرقي التَّاريخيّ.

لقد واجه المأمُول الحداثيُّ في مُستقبل أفضل -كما رُوّج له في عمليَّات امتداده الثَّقافيّ والإمبرياليّ- أزمةً سياسيَّة معاصرة، أفرزت أنظمةً شموليَّة وكليانيَّة تُوّجَت بحربين عالميتين وحرب ثالثة باردة، هذه الأزمة العالميَّة كسرت الآمال الحداثيَّة بواقعٍ غربيّ يُحقّق أفقًا مأمولًا أفضل ممَّا كان، أمام واقع غربيّ يعيش على عِدَّة أزمات، وواقع غير غربيّ يعيش على البعثرة والانحباس التَّاريخيّ النَّاتج عن الانقطاع عن ماضيه، ومحاولة التَّنزيل القسريّ للنَّموذج الغربيّ.

إنَّ الوعيَ التَّاريخيَّ «ما بعد الحداثيّ» سيأخذ شكلًا مُختلفًا عمَّا كان خلال الأزمنة الحديثة، منبع هذا الانقطاع أحدثته بالدَّرجة الأولى الأزمة الخُلُقيّة والقِيَميَّة الغربيَّة المُعاصرة، الَّتي كسرت كلَّ صور التَّبجيل والتَّمجيد للأزمنة الحديثة وآفاقها التَّقدُّميَّة الواعدة؛ إذ أنَّ ما أفرزته من تَقدُّمات تُبيّن أنَّها انحصرت على التَّقدُّم العلميّ والتكنولوجيّ في جانبه الماديّ، على حساب التَّراجُع الإنسانيّ والقِيَميّ والبيئيّ، كما رسم أبعاد إعادة تموضُع السَّرديَّات الحداثيَّة الكُبرى، والانفتاح بالمُقابل على الرُّؤية المفتوحة أو النّسبيَّة، فالوعي التاريخيُّ ليس -بالضَّرورة-

تقدُّميًّا تصاعُديًّا، والتَّقدُّم ليس -بالضرورة- حكرًا على النَّموذج الغربيّ، وأنَّ النَّموذج الغربيَّ ليس بالصُّورة التبجيليَّة الَّتي رفعها الجيل التغريبيُّ إبان الاستقلال وما بعده.

وتمُثّل فلسفة التَّاريخ الحداثية نَموذجًا مثاليًّا لعمليَّة الرَّفع من قِيمة التَّاريخ الغربيّ، وتَضمُّنه معنى وغاية في إطار بناء أفق انتظاريّ مُستقبلي تصاعُديّ، وهو ما ساهم في اختزال -فيما بعد- التَّاريخ في مسار لتحقيق الارتقاء الماديّ؛ حيثُ إنّ «هذا التَّطوُّر مُختزلٌ في المبادئ المترابطة والمندمجة للارتقاء الماديّ، والمعرفة العلميَّة والتَّطوُّر التّقنيّ والسّياسيّ، والإثراء الماديّ، والنُّضج (بمعناه الكانطي والكونتي)، بل وحتَّى القدرة اللانهائيَّة للجنس البشريّ على بلوغ الكمال كما لاحظ والتر بنيامين (Walter Benjamin)»[1]. مماَّ أصبغ على مفهوم التَّقدُّم صِبغةً عالميَّةً، الأمر الَّذي مرَّر مُسلَّمةً مفادها إنَّ «تفوُّق الغرب وعالميَّته وإطلاقه مُسلَّمة معياريَّة النَّموذج الحضاريّ والمعرفيّ الغربيّ، بحيث يُصبح نموذجًا قياسيًّا للبشريَّة جمعاء، ويُصبح نسقًا واحدًا يتيمًا، على الجميع الالتزام به واتّباعه إن أرادوا سدَّ الفجوة بينهم وبين الغرب للوُصول إلى الرُّقيّ والسَّعادة.»[2] فتمَّ بذلك تغليب كفة المفاهيم ذات

١ - وائل حلاق: الدولة المستحيلة، ص٥٣.

٢ - عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، ص١٤٦.

الكثافة المعياريَّة مثل: مفهوم التَّقدُّم، والتَّطوُّر، والتَّنوير، والنَّهضة، والحريَّة ...، بما هي مفهوم تحمل غايةً إنسانيَّةً خيّرة، تستوجب أنسنتَها ورفعها لمصافّ النَّمذجة التَّاريخيَّة لكلّ الثَّقافات الأخرى، لهذا تمَّ تضمين التَّاريخ بغاية تَسير نَحو الكمال البشريّ اللامحدود، فـ«الزَّمن له بنية غائيَّة متماسكة، فكرة أنَّ كلَّ مراحل التَّاريخ والتَّجربة الإنسانيَّة الأقدم زمنيًّا مهدت لما سيأتي، وهو دائمًا أفضل ممَّا سبق، وأمَّا ما سيأتي فهو دائمًا أوروبيٌّ أو يستمد إلهامه من أوروبَّا»[1]. يصير مفهوم التَّقدُّم هنا جزءًا من التَّاريخ وأحد مكوناته، وليس مجرَّد توقُّع أو تنبأ بمساره، ممَّا يحوّله إلى عنصر يُترجِم التَّاريخ الكُليَّ ويقوده في نفس الآن، هذه التَّرجمة أو التَّرادف مابين التَّاريخ والتَّقدم تخدم بالأساس التَّمركُز الغربيَّ، فيتمُّ ربط التَّقدُّم بالحداثة الغربيَّة دون غيرها، الأمر الَّذي يعمل على تصنيف التَّاريخ وفق تراتبيَّة تعيد موضَعة الحضارات والشُّعوب بناءً على هذا المقياس الزمنيّ الحداثيّ، ليتربَّع العقل التَّقدُّميُّ الغربيُّ فوق التَّاريخ الذي يقوده. فقد «عملت فكرة التَّقدُّم، بكل تجلّياتها تقريبًا، على بناء التَّاريخ بطريقة مُتمركزة حول أوروبَّا، بعد أن توغلت في ما سمَّاه (شيلر) بِنية الهيمنة الفِكريَّة الغربيَّة، بل إنَّ كوندرسيه (A.R. Condorcet) اعتبر حتَّى النَّكسات في التَّاريخ أخطاء

١ - وائل حلاق، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحديث، ص١٨٤.

مفيدة -إذا جاز التعبير- أخطاء تجدر بأوروبَّا، سيّدة كلّ الحضارات، أن تتعلَّم كيف تتجنَّبها»[١]. مماً أنتج تشوُّها ثقافيًّا، أساسه المُقاربة المانويَّة (Manichaeism) الحدّيَّة بين الشَّرق والغرب، التَّقدُّم والتَّخلُّف، وقد «كان هذا الاختراع المُزدوج ضروريًّا من أجل تأكيد غلبة عناصر التَّطوُّر المُستمّر هنا، وعناصر الرُّكود والثَّبات هناك»[٢]؛ لأنَّ هذا التَّقسيم الحدّيَّ يخدُم مصالح المُتفوّق، ويقنع المُتخلّف بضرورة اتباع الأوَّل للوصول إلى مرتبته.

لقد واجه مفهوم التَّقدُّم وفلسفة التَّاريخ أزمةَ معنى، في ظلّ الرَّاهن الغربيّ، خصوصًا فيما يتعلَّق بالقِيَم الخُلُقيّة، الَّتي كانت تمُثّل الأفق الانتظاريَّ الخيّر لجُلّ أنساق فلسفات التَّاريخ الحداثيَّة، فبعد أن كان التَّاريخ موضوعًا واقعيًّا والتَّقدُّم ضروريًّا ونافعًا، صرنا فيما بعد الحداثة أمام «تاريخ ليس موضوعيًّا وغير واقعيّ، بل هو النُّسخة الرَّسميَّة عن القصَّة بالشَّكل الَّذي يرويها الجانبُ المُنتصر. وفي الغالب، إنَّ كلَّ ما نسمّيه تاريخًا هو قصة تُحكي من وجهة نظر غربيَّة أو أوروبيَّة ورأسماليَّة وتكنوقراطية»[٣]. ففقد النَّموذج الغربيُّ مصداقيَّته الإرشاديَّة

---

١ - وائل حلاق: الدولة المستحيلة، ص٥٤.

٢ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، ص٨٩-٩٠.

٣ - سوزان مايز: ما بعد الحداثة - دراسات في التحولات الاجتماعية والثقافية في الغرب-، ص١١٧-١١٨.

والتَّبشيريَّة، وتَبيَّن النُّزوع الأيديولوجي ذو المنظور الوحدويّ الخادم للوُجود الغربيّ.

الفَصلُ الثَّانِي:
نَقدُ العُنصرِيَّة الثَّقَافيةِ الغَربِيَّة

■ المَبحَثُ الأوَّل: الأَزمَةُ الأَخلاَقيَّةُ المُعاصِرَة.. اِنهيَارُ المَنظُومَة القِيَميَّة الإِنسَانيَّة

إنَّ التَّجربَة الزَّمنيَّة «ما بعد الحداثيَّة» قد أفرزت توجُّهًا مُختلفًا تمامًا، قد يكون أقرب لرصد نتائج التَّوجُّهات الحداثيَّة؛ حيثُ برزت عدَّة حقول معرفيَّة مُتداخلة، وهي أُطروحات تتَّجه نحو غياب المرجعيَّات، وكذا تآكل الذَّات الإنسانيَّة لصالح التَّوجُّهات النَّفعيَّة والماديَّة وتعاظُم القوَّة، ممَّا هيَّأ الأرضيَّة للتَّراجُع القِيميّ الخُلُقيّ، ومن ثمَّ هيمنة النّسبيَّة المعرفيَّة والخُلُقيّة، وتصاعُد التَّوجُّهات الاستهلاكيَّة العالميَّة. إذًا، لقد أفرز هذا التَّراجع القِيميُّ الغربيُّ هيمنةً وسيطرةً، رفعت من مستوى هاجس القوَّة والسَّيطرة والمنفعة على حساب القِيم الخُلُقيّة الإنسانيَّة، الَّتي لطالما رفعها الفِكر الأنواريُّ، وعمل على التَّسويق الثَّقافيّ والإمبرياليّ لها، هذا التَّسويق الَّذي غرس وقوَّى التَّوجُّه العنصريَّ المنحاز للقوميَّة العِرقيَّة والدينيَّة. لكن هل يستقيم أن نُحاكم هذا الفِكر بالجانبِ الخُلُقيّ، ألن يكون تقويمنا حُكمًا مِعياريًّا ينطلق بدوره من توجُّه معياريّ مُعاكسٍ؟

لقد نَحت القِيَم الإنسانيَّة الَّتي رفعتها الأنوارُ الغربيَّة منحيين: منحى خارجيّ أساسه المصلحة والقوَّة ومنطق الاستهلاك والتَّحكُّم، ومنطق داخليَ يرفع -نوعًا ما- من قيمة مواطنيه، عبر تسخير غير الغربيّ امتدادًا نفعيًّا له، ممَّا عمل على تدمير ثقافات الشُّعوب الأخرى، سواء عبر الحركات الاستعماريَّة، أو تحت لافتات الديموقراطيَّة والحريَّة. ومن هنا "تمخَّض عن التَّمركز العِرقيّ الَّذي أنتج الحضارة الغربيَّة منظومة قِيَم حملت على عاتقها مسؤوليَّة تدمير الأنساق الثَّقافيَّة لباقي الشُّعوب والحضارات، الَّتي تُشكّل مجرَّد فعل غير تاريخيّ"[1]. هذا التَّدمير لم يسمح -خصوصًا لبلدان الشَّرق- بتحقيق نهضة تَحفظ لهم نوعًا من الاستقلاليَّة الذَّاتيَّة أو رسم مسار تاريخيّ خاص بهم، بل عملت على استدامة ضعفهم لصالح استدامة التَّفوُّق الغربيّ، وهو تدميرٌ يتجدَّد في صور مختلفة وتحت ذرائع مُتنوّعة، ما دام الهدف يظلُّ واحدًا، وهو بقاء قيادة العالم في يدٍ غربيَّة. فانتقلنا من طرح النَّموذج الغربيّ نموذجًا إرشاديًّا، إلى فرضه بالوسائل السلميَّة أو الحربيَّة، ومنه يُمكن القول إنَّ «المرحلة الحالية للحضارة الغربيَّة تمُثّل طور الاجتياح الَّذي يطمح في صبّ العَالَم داخل القالب الغربيّ على مُختلف الأصعدة والميادين: الاقتصاديَّة والسّياسيَّة والقِيَميَّة والثَّقافيَّة والعسكريَّة والتَّشريعيَّة ... إلخ.

---

١ - بلخيرة محمد: برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة، ص٨١.

ومنه فالمركزيَّة الغربيَّة، هي مرحلة الطُّوفان الغربيّ الَّذي يعني الدَّمج المُخطَّط والقسريَّ في قالب واحد، ونفي التَّعدُّد والتَّنوُّع والتَّمايُز والاختلاف»[1]. فتغييب إرادات الشُّعوب الأخرى وفرض التَّوجُّهات القسريَّة، لا تمنح هذه الإرادات فرصةً حقيقيَّةً للمشاركة في بناء التَّاريخ الإنسانيّ، ما دامت تحصرهم في مسار مُحدَّد بالتَّبعيَّة للنَّموذج الغربيّ، ومنه لم تعُد العُنصريَّة توجُهًا أوروبيًّا، وإنما هو توجُّه لتحالف قُوىً غربيَّة فكَّكت كلَّ القِيَم الإنسانيَّة من أجل فرض المزيد من السَّيطرة والتَّحكُّم. أمام مُتغيّر وحيد هو نقل التَّمركُز الأوروبيّ أو القارّيّ إلى تمَركُز أوسع، تقودُه أمريكا ومن يدور في فلكها.

إنَّ تجليَّات الانهيار الخُلُقيّ ارتبطت بالفكر الحداثيّ الغربيّ، الناتج عن طموح مَيكنة العالَم وإفراغه من محتواه الروحيّ، فصرنا أمام «منظور ممزَّق للعالم، وهو منظور يخلق ثنائيَّة مصطنعةً، تفصل جذريًّا بين العقل والجسد، والذَّات والموضوع، والثَّقافة والطَّبيعة، والأفكار والأشياء، والقِيم والحقائق، والرُّوح والمادَّة، والإنساني وغير الإنساني»[2].

---

١ - شيخاوي لخضر: نقد كونية المركزية الغربية، كلية العلوم الاجتماعية، ص٢٤٤.

٢ - سوزان ماير: مابعد الحداثة - دراسات في التحولات الاجتماعية والثقافية في الغرب-، ص١١٨.

إذ من المُتعَارف عليه، أنَّ جُلَّ المُجتمعات الإنسانيَّة تطمح بالدَّرجة الأولى للسّموّ الخُلُقيّ والقِيَميّ، انهيار هذا السَّقف معناه انهيار الأُسس الإنسانيَّة للمشترك الكَونيّ، وهو ما نعيش على وقعه حاليًا، فالغرب لازال يُحاول أن يستديم تمركزه وعنصريَّته، عبر عمليَّة استباقيَّة نيو إمبرياليَّة (Neo-imperialism) جديدة، تدخل ممكنات المستقبل لصالحه، فبعد عقود من الوصاية الغربيَّة على باقي الشُّعوب، تَبيَّن أنَّنا أمام نَموذج عنصريّ، لا يهدف سوى تحقيق مصالحه تحت شعارات أخلاقيَّة وثقافيَّة واهية، وبهذا تحوَّل النَّموذج الإرشاديّ الغربيّ، إلى صورة مرعبة ومخيفة تُسيرّ الشُّعوب، خصوصًا تلك الَّتي يتمُّ تصنيفها بالتَّخلُّف، عبر حصرها في رتبٍ أقل، إنَّ هذا التَّوجُّه ينتعش بصورة ممنهجة وفق هياكل تقودُها الهيئات المدنيَّة والحكوميَّة والثَّقافيَّة والسّياسيَّة، فصارت الدُّول غير الغربيَّة تعيش في دوَّامة تتحكَّم فيها المصالح الاقتصاديَّة والسّياسيَّة، ومنه فـ«إنَّ الغرب لم يعد بقعة جغرافيَّة ولا حتَّى لحظة تاريخيَّة، وإنَّما أصبح كالآلة الَّتي تدور وتدوس الجميع، بما في ذلك صاحبها والقائمين عليها»[1].

بالتَّالي، صار المشترك الكَونيُّ اليوم، يعيش على وقع صراع وجوديّ يفتقر للأُسس الخُلُقيّة، ممَّا أوصلنا إلى مشتركٍ كونيّ يقوم

١ - عبد الوهاب المسري: الفلسفة المادية وتفكيك الانسان، ص١٧٨.

على الطَّابع الآلي المنزوع عنه روحه الإنسانيَّة، «وقد أثبت هذا النَّموذج الميكانيكي (Manichaeism) المُصطنع أنَّه مرآة مشوَّهةٌ قادتنا إلى عدم فَهم عالمنا وعلاقتنا به بطريقة صحيحة»[١]. فالغرب يرادف بين تفوُّقه ووجوده، ممَّا يعكس أرضيَّة للصّراع تستبيح كلَّ شيء لصالح بقائه، وهو مَنحى أصَّلته الحداثة؛ إذ «من المفاهيم المتأصّلة في الحداثة مفهوم التَّخويل والهيمنة، فالبشر مخوَّلون للهيمنة على الأرض، وشعوب العالَم الأوَّل مخوَّلة للهيمنة على شُعوب العالم الثَّالث، والبيض مخوَّلون للهيمنة على الملوَّنين، وهكذا ...»[٢]. ومن ثمَّ فإنَّ مرحلة العنصريَّة الغربيَّة المُعاصرة، تجاوزت المعنى القديم للعنصريَّة القائمة على التَّمركُز وتصدير النَّموذج الإرشاديّ لباقي الشُّعوب، بخلق توجُّه مخالف يعكس عنصريَّةً تقوم على تسوية الكُلّ في مصافّ المادَّة/ السّلعة والاستهلاك، أو تقسيم العالم إلى فئتين: فئة تقود العالَم وفئة تابعة مستهلِكة لاتملك زمام أمرها، وبذلك «تجاوزت النَّزعة الغربيَّة السَّائدة حاليًا المعنى البسيط للتَّمركُز نحو التَّمركز بالمعنى المعقَّد

---

١ - سوزان ماير: مابعد الحداثة - دراسات في التحولات الاجتماعية والثقافية في الغرب-، ص١١٨.

٢ - المر سوزان ماير: مابعد الحداثة - دراسات في التحولات الاجتماعية والثقافية في الغرب-، ص١١٨-١١٩.

الأكثر تطرُّفًا، الَّذي يجعل من الثَّقافات تفاوتًا معياريًّا بين الأنا الغربيّ المُتحضّر والآخر الهمجيّ/المُتوحش، وهي النَّزعة الَّتي ظلَّت سائدةً على امتداد الحقب التَّاريخيَّة لأوروبَّا»[١]؛ إذ التَّفاوت المِعياري يمنح للمُتفوّق مرتبةً وجوديَّة متقدّمة، تسمح له بفرض سيطرة مُطلقة على الباقي؛ لأنَّ المركزيَّة لم تكن حِكرًا على النّطاق الثَّقافيّ بشكلٍ عام، بل تجذَّرت في البُعد الخُلُقيّ، ممَّا سهَّل تنصيبهم لأنفسهم مقرّري ومحدّدي الأمر لخُلُقيّ الإنسانيّ. ولهذا فإنَّ «الغرب يرتّب العالم حول مركز، يُشكّل هو جوهره، وكلُّ من يبتعد عن المدار المُتَّصل بذاك المركز، يكون قد هوى إلى الحضِيض؛ لأنَّه فقدَ اتصاله بالمركز الَّذي يمنح الأشياء أهميَّتها»[٢]. ففي عالم تحكمه المرجعيَّة الماديَّة يفقد معناه التقليدي لصالح سرديَّات مفتوحة ونسبيَّة، لهذا فإنَّ المنظومة العلمانيَّة العالميَّة المُعاصرة، تُواجه إشكاليَّة فلسفيَّة وخُلُقيّة مقلقة، «فهي منظومة فلسفيَّة تُنكر الميتافيزيقا (Metaphysics) والثُّنائيَّات والمُطلَقات، وتؤكّد نسبيَّة المعرفة وكلَّ القِيَم الخُلُقيّة، وهو مايعني -بطبيعة الحال- غياب المرجعيَّة المتجاوزة الَّتي تتجاوز الأفراد، وظهور المرجعيَّة الماديَّة الكامنة، حيثُ يُحدّد كلُّ إنسان قِيَمه بنفسه، دون العودة إلى

١ - بلخيرة محمد: برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة، ص٨١.

٢ - راضية شافعي: إدوارد سعيد ونقد خطاب الكولونيالي الغربي، ص٢٢٥.

أيّ مطلَقات أو ثوابت إنسانيَّة»[١]. غياب الثَّوابت والمرجعيَّات الرَّادعة، يُنذر بفُقدان السَّيطرة على المُشترك الكَونيّ، وانفتاح الأفق المستقبليّ على المزيد من التَّصادمات والحروب والتَّنافس الَّذي يُحرّكه هاجس القوَّة والهيمنة، لهذا صِرنا أمام مفهوم مختلف للإنسانيَّة، إنسانيَّة تتغذَّى على الصّراع والتَّفوُّق والتَّوسُّع، وهي «إنسانيَّة غير مسبوقة سمَّت نفسها الغرب (استعارة جغرافية مسلحة) دفعت بنَموذج الدَّولة إلى أقصى مُهجته: لقد تحوَّل إلى دولة آكلة للدُّول، ومن ثمَّ لأجسام الشُّعوب غير الغربيَّة أو الَّتي توجد تحت خطّ الغَرب»[٢]. ومِن ثمَّ، فإنَّ التَّوجُّه الانصهاريَّ لباقي العالم ضمن توجُّهات الغرب، أصبح يتعاظم بفعل التَّحالفات وطُغيان الشَّعبويَّة والتَّوجُّهات السُّلطويَّة، الَّتي تُغذّيها الرَّأسماليَّة الليبراليَّة في أنماط بعض أوجُه السّياسة الغربيَّة المُعاصرة.

فهل يُرادِف انهيار القِيَم الخُلُقيّة الَّتي كانت تكسو الواجهة الغربيَّة انهيارًا لهذه المركزيَّة العُنصريَّة؟ وهل غياب المرجعيَّة الخُلُقيّة المتعارف عليها، بداية لتشكُّل مرجعيَّة خُلُقيّة أخرى؟

إنَّ الأزمة الخُلُقيّة ليست حكرا على انحسار الآفاق الحداثيَّة الغربيَّة في مستقبل إنسانيّ أفضل يقوده الغرب، بل أيضًا أزمة خُلُقيّة عند الآخر

---

١ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص٢٣٨.

٢ - فتحي المسكيني: كولونيالية الكراهية، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني.

غير الغربيّ، هذا الآخر الَّذي لايملك سوى ماض مهمَّش لصالح حاضر لا يملك زمام المُشاركة فيه أو التَّحكُّم في مجرياته التَّاريخيَّة، ممَّا يخلق هُوة ذاتيَّة ناتجة عن تحقير الماضي والانغماس في البُنى الثَّقافيَّة الغربيَّة، فصرنا أمام حاضر غير غربي محاصر بأزمتين (ذاتيَّة/ هُويتيّة، وغربيَّة قسريَّة) ومستقبل يستبق الغرب لقيادته. إذًا، قد «لايتعلَّق الأمر ببناء سرديَّة عن الهيمنة الّتي تخترق التَّرجمات بل كميّة الكراهيَة الَّتي تتسرَّب في شكل أنفسنا ما بعد الكولونياليَّة: كراهية مصادر أنفسنا، كما كراهية الشَّكل الحديث أو الغربيّ من الإنسان. كراهية أن تكون مجرَّد ماض لنفسك الحالية، كما كراهية أن تكون مستقبلاً لم تتهيَّأ له أعضاؤك تمرض به ولا تكونه. نحن لا نكون بل نمرض بوجودنا»[1]. وبالتَّالي الأزمة الأخلاقيَّة المُعاصرة، هي أزمة بمعيار حداثيّ، قد لايؤثّر بشكلٍ مباشر في مراجعة المسار الغربيّ؛ لأنَّ مسألة التَّمركُز حول الذَّات تفرض رؤيةً متعاليةً عن الأزمة ذاتها، فتحاول أن تتجاوزها بخلق عتبة تاريخيَّة جديدة تنتعش على استدامة السَّيطرة. فالفَرضيَّة تقوم ببساطة على افتراض مفاده، أنَّ العنصريَّة تجيب بشكلٍ مختلفٍ عن وظيفة قديمة، فكلُّ شيءٍ يحدث وفق ما هو في مجتمعات المساواة، أي العمل على إعادته أو محاكاته بشكل مختلف في المجتمعات الَّتي

١ - فتحي المسكيني: كولونيالية الكراهية، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني.

تقوم على نوع من الهرميَّة أو انعدام المساواة، فيتمُّ إرجاع هذا التمييز أو انعدام المساواة فعلاً لا مشروعًا، لهذا سيتمُّ خلق تفاوت جديد عبر مسح النَّموذج التَّقليديّ، وهكذا سنحصل على أيديولوجيا العنصريَّة[1].

لهذا، لا أعتقد أنَّ ما نعيش على وقعه اليوم من انهيار وتحوُّل في ما يخصُّ الأمر الخُلُقيّ قد يؤثّر على منحى العُنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة، أو يحدُّ من تعاظمها أو حتَّى يدخلها بباب التقيّيم الخُلُقيّ، بقدر ما قد يفتح أفقًا عنصريًّا جديدًا مخالفًا للعنصريَّة التقليديَّة؛ وهو أفق يتقوَّى بشكلٍ كبير بفعل تعاظُم وتحرُّر المصالح الاقتصاديَّة والسّياسيَّة والثَّقافيَّة، فغياب المرجعيَّة الخُلُقيّة -أو على الأقل هامشيتها- يسمح بالرَّفع من وتيرة السَّطوة والقوَّة، وكذا العنصريَّة بكل أشكالها. «لقد فقدت الحضارة الغربيَّة، الأُسس الَّتي قامت عليها في البداية، والَّتي كانت دافعًا أساسيًّا لمسيرتها، فبفقدان قيمتها الدّينيَّة والخُلُقيّة فقدت توازنها، إذ طغت المادَّة والعلم على حساب القِيَم، وما كان لحضارةٍ أن تقوم إلاَّ على أساس من التَّعادُل بين الكمّ والكيف، بين الرُّوح والمادَّة، وبين الغاية والسبب، فأينما اختل هذا التَّعادل في جانب أو في آخر كانت سقطة رهيبة فاضحة»[2].

---

1 - Ahmed Lemligui, Histoire d’un rascisme au long cours, P4.

٢ - عماد الدين ابراهيم عبد الرزاق: نقد الحضارة الغربي في فكر مالك بن نبي، ص٥٠.

إن القولَ بأنَّ التَّوجُّهات غير الخُلُقيّة الَّتي نعيش على وقعها في السّياق الغربي «ما بعد الحداثيّ» هو أمر غير إنسانيّ، ربمَّا قول يستقيم بالنّسبة للشُّعوب المضطَّهدة، أكثر ممَّا يتناسب مع الشُّعوب المتفوّقة الَّتي تعيش على التَّوجُّه العنصريّ بما هو مكسب ثقافيٌّ يوازي المكسب الطَّبيعيَّ، ممَّا يسمح لها بنسج غلاف جديد لإضفاء الشَّرعيَّة الخُلُقيّة على توجُّهاتها غير الخُلُقيّة، حيثُ تصير الأخلاق نفسها تتروح بين حدَّين سلبيَّين خُلُقيًّا، في ظلّ سرديَّة غربيَّة تتغذى على التَّشوُّه الثَّقافيّ للقِيَم الخُلُقيّة. إذ « ثمَّة خجل مُزعج أخذ يُخيّم على علاقتنا بأنفسنا الحديثة، بما كنَّا نعوّل عليه في المرور إلى مستقبلنا: إنَّ الاستقلال عن القُوى الاستعماريَّة لم يكن غير هدنة إنسانيَّة. فقط مجرَّد وقت مستقطع من تاريخ الهيمنة نعني من تاريخ موتنا الحديث»[1]. لقد تحول المشهد الكَونيُّ من الكولونياليَّة التَّقليديَّة، إلى نيوكولونياليَّة (Neocolonialism) تسلُّطيَّة، تقود الدُّول الضَّعيفة نحو المزيد من أشكال الكولونياليَّات المُتجدّدة. وقد امتدَّ الأمر إلى خلق ما أَطلق عليه (فتحي المسكيني) بكولونياليَّة الكراهية الَّتي تُجسّدُها في أبهى صورها «إسرائيل» بدعم من حلفائها الغربيين، فـ«من أجل ذلك تأخد كولونياليَّة الكراهية في حالة الاحتلال'الإسرائيلي' للفلسطينيّين

١ - فتحي المسكيني: كولونيالية الكراهية، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني.

سرعة سياسيَّة قُصوى، كشفت الوجهَ المرعب عن النَّموذج الحديث للدَّولة: التَّملُّك والسّيادة ولكن ليس على الطَّبيعة بل على السُّكان الأصليّين»[١]. إذًا، فالمحرّك الرَّئيس للأمَّة الغربيَّة هو استدامة تميُّزها عبر استغلال كلّ المُمكنات الَّتي تُساهم في بقاء تفوُّقها، ممَّا يجعل من العدَّة المفهوميَّة الَّتي ترسم معنى المشتركِ الكَونيّ، ومنها مفهوم الإنسانيَّة والقيَم الخُلُقيّة مجرد مطيَّة لتمرير نَموذج إرشاديّ عالميّ يحمل لافتةً خُلُقيّة وهميَّة تسعى للسيطرة على العالَم.

إنَّ الامتداد الَّذي أنتجه التَّمركُز الغربيَّ إثر الحركات الاستعماريَّة، لم ينتهِ بالحركات التَّحرُّريَّة، بل تم زرع -بالتوازي مع ذلك- تمركُز استيطانيّ صهيونيّ؛ إذ «انطلق الصهاينة من المركزيَّة الغربيَّة هذه، وهذا التَّحيُّز الغربيّ للذَّات الغربيَّة وعمَّقوها بإضافة المركزيَّة الصهيونيَّة، وتَحيُّز الصهيونيَّة للذَّات اليهوديَّة»[٢]. فصرنا أمام عُنصريَّة تستوطن الدَّاخل العربيَّ، وتنهش من وحدته، وتعمل بشكل مُتجدّد على خلق نعرات بين مكوّناته. هذه العمليَّة التَّوسُّعيَّة أو الامتداديَّة، مهدت لها الطَّريق القُوى الإمبرياليَّة الغربيَّة، في إطار غايةٍ قوميَّة، هي خلق امتدادٍ غربيّ داخل البُقعة الجغرافيَّة العربيَّة، يُنهي من خلاله الغربُ المسألةَ اليهوديَّة،

---

١ - فتحي المسكيني: كولونيالية الكراهية، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني.

٢ - عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، ص١٩٣.

وتُبقي بالمقابل وجودَها داخل العُمق العربيّ. لهذا قد يكون مفيدًا بالنّسبة للآخر غيرِ الغربيّ، فكُّ الارتباط الثَّقافيّ المؤسَّس على التَّشوُّه الثَّقافيّ الَّذي يُوازي بين الغرب والإنسانيَّة، وبين الحداثة والمستقبل، وبين التَّقدُّم والغرب، وبين التُّراث والتَّخلُّف، وبين العلمانيَّة والتَّقدُّم، وبين التَّاريخ والمسار التَّصاعديّ، وبين التَّحضُّر والغرب، بل والتنصل -بشكلٍ جذري- عن كلّ التَّوجُّهات المانويَّة التَّصنيفيَّة في شكلها الثُّنائي الحدّي، الَّتي تَقسِم العالَم إلى خير وشرّ، ومتقدّم ومُتخلّف، وشرق وغرب، وجنوب وشمال، وداخل التَّاريخ وخارجه، لترفع راية الخير وترمي باقي الشُّعوب بالشرّ، ممَّا يضعنا أمام ضرورة نزع الأسطرة عن النَّموذج الغربيّ، وكشف الخلفيَّات والشُّحنات الأيديولوجيَّة الَّتي تتوارى وراء الخطابات والتَّصنيفات الثَّقافيَّة اللامعة.

■ المبَحَثُ الثَّاني: أَسطَرَةُ النَّموذَجِ الغَربيَ:

لقد طرح الغرب نفسَه كنَموذجٍ إرشاديّ كونيّ، والنَّمذجة هنا، تعني وجودَ مركز وباقي الشُّعوب يمثلون الهامش أو الأطراف والتَّابعين، «بمعنى أنَّها تفترض وجود ثوابت ثقافيَّة مميَّزة تشكّل المسارات التَّاريخيَّة للشُّعوب المختلفة. ولذلك، فإنَّ المركزيَّة الأوروبيَّة معاديةٌ للكونيَّة (العالميَّة)؛ لأنَّها غير مهتمة بالسَّعي إلى قوانين عامَّة مُحتملَة للتَّطوُّر الإنسانيّ. ولكنَّها تُقدّم نفسها كونيَّة؛ لأنَّها تزعم أنَّ تقليد جميع

الشُّعوب النَّموذج الأوروبيُّ هو الحل الوحيد لتحديات عصرنا»[١]. فصار هو من يحدّد المنظور العام لجُلّ المسارات المعرفيَّة والعلميَّة والتَّاريخيَّة للعالم، ومن ثمَّ، تمَّ تقسيم العالم إلى قُطبين: الأوَّل، قائد ومستعمِل ومستغِل وموجِّه ومتقدِّم ومتحضِّر، هذا التَّصنيف الَّذي قَسم الصِّفات الإنسانيَّة بين قطبين متعاكسين، الأوَّل يعكس كلَّ صفات النَّمذجة الإرشاديَّة والاصطفائيَّة المُمكنة، أمَّا باقي العالم فيدخل بخانة المستغَل والتَّابع، والهامش، والمتخلِّف، والبربري ...؛ إذ من «الواضح، أنَّ الغرب، رتَّب العالَم حول مركز-شكل هو جوهره- وكل من ابتعد عن المدار المتَّصل بذلك المركز، هوَى إلى الحضيض لأنَّه فقد اتصاله بالمركز المانح للأشياء أهميَّتها»[٢]. هذه العمليَّة التَّصنيفيَّة تمَّ تقويتها عبر التَّوجُّه الاستعماريّ والاكتشافات الجغرافيَّة والامتداد الثَّقافيّ والتَّقدُّميّ الغربيّ في بلدان الجنوب، ممَّا ساهم في تضخيم الذَّات الغربيَّة، ورفعها لمستوى القُدوة النَّموذجيَّة الَّتي يجب العمل على استلهام طريقها واستنساخ تجاربها. «وأنتج الَّتفوُّقَ الثَّقافيَّ على مستوى المعرفة والفِكر والتّقنية، نظريات التَّفوُّق والثُّنائيَّة الضّديَّة 'الأنا والآخر'، كعبء الرجل

١ - عامر عبد زيد الوائلي: «صورة الآخر الحضاري - نقد الاستعلاء في المركزية الغربية-»، ص١٤٣.

٢ - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص١٨٥.

الأبيض والاستعمار وحتَّى الاستشراق، وأصبحت كلُّ الحضارات والثَّقافات الأخرى خصومًا وأعداءً بالنّسبة لأوروبَّا، الَّتي وعت ذاتها بهذا التَّميُّز والخصوصيَّة، فرتَّبت الأقوام والشُّعوب والحضارات على سُلَّم حضارتها»[١]. إنَّ الغرب هو الثَّقافة الوحيدة الَّتى تمَّ رفعها لمصافّ النَّموذج القابل أو الموضوع رهن التَّقليد والمحاكاة. على خلاف باقي الثَّقافات، كان الغرب قد خلق إمكانيَّة توليد نماذج شبيهة دون إمكانيَّة طرح العمليَّة بشكلٍ معكوس، فأوروبَّا هي المركز والباقي هو الهامش، وهو ما تأتَّى لها عبر تراكم استعماريّ جاب كلَّ بقاع العالم؛ فلقد «هيمنت أوروبَّا على كل القارَّات، الواحدة بعد الأخرى، ولكن أحدًا لم يهيمن عليها، واخترعت حضارةً حاول العالم أن يقلّدها، ولكنَّ العمليَّة العكسيَّة لم تحدث (على الأقل حتى الآن)»[٢].

وهو ما حوَّل التَّمركُز الغربيَّ إلى عمليَّة ثقافيَّة استثماريَّة، تعمل على ترويج التَّجربة الغربيَّة كتجربة رائدة وتستحق الإشادةَ والاستلهام، إذ «لايتطلَّب المشروع الأوروبيّ إنتاج ثقافة موحَّدة تَعمُّ العالم أجمع، وإنَّما يكفيه إنتاج أنماط مشتركةٍ بعينها من السُّلوك القانونيّ الخُلُقيّ،

---

١ - زهير توفيق: حوارية فكرية في رابطة الكتاب حول المركزية الثقافية الغربية، موقع الغد الإلكتروني.

٢ - زيغموند باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص٢٩٧

ومن أشكال البِنية السّياسيَّة القوميَّة، ومن إيقاعات التَّاريخيَّة التَّقدُّميَّة. إنَّه يدعو الجميع إلى أن يغدو غربًا أو يحاول إكراههم على فعل ذلك. ليُعبّروا عن خصوصيَّاتهم من خلال الغرب، بوصفه مقياس الكونيَّة»[1].

ما يسمح لنا بالقول أنَّ النَّموذج الغربيَّ اكتسب في هذا الإطار ما يمكن تسميته بمصطلح الأسطرة، الَّذي يحيل على شحنة إيجابيَّة مُكثَّفة، تنتعش على الرفع من قيمته وموضعته في رتبة السَّرد الأسطوريّ، الَّذي ينفرد بتحقيقه وتشكيله بناءً على بنيات ومسار محدَّد وممنهج، فيتمُّ تعظيم كلّ الحيثيَّات والأحداث والمظاهر والمكوّنات المؤسّسة لهذا النَّموذج، ممَّا يجعلنا نتساءل: أليس القول أو التَّسليم بمعطى الأسطرة في حدّ ذاته تعجيز وتقزيم لكلّ ممكنات الآخر غير الغربيّ؟

لقد رُفع النَّموذج الغربيّ إلى مُستوى الأَسطرة، الَّتي خضعت لمرحلتين: الأولى رافقت المرحلة الكولونياليَّة التَّقليديَّة، أمَّا مرحلة الاستقلال الَّتي تَغنَّى بها العالم غير الغربيّ (أو بلدان الامتداد الغربي) لم تكن سوى فجوة عبور لنمط آخر من الكولونياليَّة، «لم تكن إذًا، إعلانات الاستقلال في البلدان غير الغربيَّة وحتَّى الغربية سوى مجموعة هُدنات إنسانيَّة، من أجل التَّفرُّغ لإنتاج أجسام طَيّعة، سوف

---

١ - سيندر بانجستاد: مقارعة العلمانوية -العلمانوية والإسلام في أعمال طلال أسد-، موقع معهد العالم للدراسات الإلكتروني.

تحتاجها الدُّول لاحقًا عند ممارسة كولونياليَّة السُّلطة»[١]. هذه الأسطرة الَّتي هدفت منذ وعي العقلِ الغربيّ بتفوُّقه إلى إعادة صياغة وتشكيل هذا الآخر وفق توجُّهاته الفوقيَّة؛ إذ «ليس ثمة مُسوّغ لإعادة الإنتاج، غير الادّعاء بضرورة وحدة الجنس الإنسانيّ ووحدة الثَّقافة البشريَّة، وتحت غطاء الكليَّة والشُّمول، كان الهدف هو تعميم النَّموذج الغربيّ، بوصفه النَّموذج الأصلح، وعُّد الآخر جزءًا من الذَّات خاضعًا لإستراتيجيَّته، وميدانًا لتجريب صلاحيَّة النَّموذج فيه»[٢]. فصرنا أمام تصنيفٍ ثُنائيّ قطبيّ يفرض توجُّهين هما: التَّخلي عمَّا عليه القُطب الثَّاني للتَّحلي -كضرورة لتحقيق التَّقدُّم- بما يميّز القطبَ الأوَّل، ممَّا ينفي قدرة الثَّاني على الإبداع أو التَّقدُّم الذَّاتي، ويكلَّف الأوَّل بقيادة الثَّاني لتحقيق ما عجز عن الوصول إليه، وهذا يعني أنَّ كلَّ بقعة من بقاع الأرض -باستثناء قلَّة قليلة- تخضع اليوم على العكس من عِقد أو عقدين ماضيين، إلى تَغيُّر وسواسيّ قهريّ متواصل، يُطلق عليه هذه الأيام 'التَّحديث'، وأنَّها تخضع إلى كلّ شيءٍ يصاحبه، بما في ذلك الإنتاج المُتواصِل للبطالة البشريَّة والاضطرابات الاجتماعيَّة الملازمَة لها»[٣].

---

١ - فتحي المسكيني: كولونيالية الكراهية، موقع الحوار المتمدن الإلكتروني.

٢ - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص١٨٨.

٣ - زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٢٦.

إنَّ عمليَّة مسح الطَّاولة الَّتي فُرضت بالبداية عبر التَّوجُّهات الإمبرياليَّة الغربيَّة، صارت مسارًا واقعيًّا لجُلّ الدُّول غير الغربيَّة، هذه التَّبعيَّة خلقت قائدًا كونيًّا ومريدين فاقدي الأهليَّة الثَّقافيَّة والاقتصاديَّة والسّياسيَّة والمعرفيَّة، «لقد نجح الغرب في تغيير قبلة ما نُسمّيه الإنسانيَّة الحالية، أي الإنسانيَّة الغربيَّة الَّتي فرضت نَموذَجها الذَّاتي في كلّ مكان: كلُّ غير الغربيّين هم اليوم بصدد التَّذوُّب بشكلٍ غربيّ»[1]. فصرنا أمام نَموذج أُحاديّ، ومن ثمَّ صار هو منتج المعرفة ومبدعًا للقِيَم، ومحدّدًا للمبادئ الإنسانيَّة، ممَّا أنتج تمايُزًا فِكريًّا بين الشُّعوب، «هذا هو مضمون التَّمركز الغربيّ، وهو مضمون قَسَّم العالَم إلى مركزٍ وأطراف، استنادًا إلى اختراع خُرافة الغرب الأبدي المضادّ لـ«الشَّرق الأبدي، وقد كان هذا الاختراع المزدوج ضروريًّا من أجل تأكيد غلبة عناصر التَّطوُّر المُستمر في الغرب، وغلبة عناصر الثَّبات في الشَّرق»[2]. هذه المُقاربة الثُّنائيَّة الَّتي تروم مأسَسة توجُّه قُطبي محرّكها بالأساس عمليَّة الأسطرة، الَّتي لا تدع مجالاً للشَّك في النَّموذج المُقدَّم، بل وجوده يفرض ضرورة التَّخلي عن ماض تمَّ ركنُه جانبًا بدعوى تخلُّفه

---

١ - فتحي المسكيني: لا معنى للحرية تملك مضمونا جاهزًا، موقع الفيصل الإلكتروني.

٢ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص٢٠.

عن الرَّكب النَّموذجيّ المُسلَّم بتفوُّقه، ومن ثمَّ «يتمُّ تهديم نسق ثقافيّ، وزرع نسق آخر محله، وهذه الأنساق محمَّلة بدلالات ثقافيَّة تُفضي بالملوَّن لأن يكون تابعًا والأبيض متبوعا، فمديونيَّة المعنى -الَّتي تجعل الأول مدينًا للثَّاني- تتَّصل بتكوينه كإنسان بُعث من طيَّات النّسيان والوحشيَّة، واندرج في سياق الكينونة البشريَّة الحقيقيَّة، يُعاد تشكيل المُلوَّن طبقًا لمواصفات الأبيض»[1]. هذه الوصفة الغربيَّة الجاهزة لتحريك عجلة التَّاريخ للكائن غير الغربيّ، هي وصفة غربيَّة تستوجب مديونيَّة وتبعيَّة مستقبليَّة، تقوم على دفع ثمنٍ متعدّد الأوجه، تجاه العمليَّة التَّبشيريَّة والقياديَّة والتَّوجيهيَّة الغربيَّة للآخر غير الغربي. فالأمر لايتعلَّق بتبشير ثقافيّ لأجل أُفق قِيَمي إنسانيّ يبتغي تحقيق الخير لباقي الشعوب، بقدر ما هو إطار عام لاستدامة تفوُّق وقيادة الغرب، بمقابل تبعيَّة الاخر. الأمر الَّذي يخلق عمليَّة إقصاء ونفيّ للآخر بما هو كائن قادر على الاستقلال الفِكريّ والثَّقافيّ، لهذا «فالمركزيَّة الغربيَّة تقوم على أساس إقصاء الآخر الَّذي ينتمي إلى العِرق الأوروبيّ، أو الديانة المسيحيَّة. ليس هذا فحسب، بل إنَّ هذه المركزيَّة تريد إخضاع الثَّقافات، والأديان الأُخرى لتكون تحت مركزيَّة أوروبَّا، وسيطرتها

---

١ - عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، ص٦٩.

التَّامة»[١]. فالهدف الأكبر ليس التَّبشيرَ الثقافيَّ وعمليَّة التَّبادُل الثَّقافيّ والحضاريّ بين الشُّعوب، بقدر ماهو منطق الإخضاع لأجل السَّيطرة والهيمنة. فضمن هذه السرديَّة التَّاريخيَّة الغربيَّة[٢]، «لا موقع إذًا للآخر في خارطة التَّفكير الغربيّ، فغاية الكمال كما يرى هوسرل (Edmund Husserl) أن يكون الآخر غربيًّا، فحيثُ الغرب، ثمَّة منطق يقود الحياة إلى مصير خالد، وبهذا تترتَّب شؤون الآخر بمنظور غربي، لا يريد أن يرى في موضوعه إلَّا ما يتقصَّد أن يراه هو فعلا، ويرغب فيه»[٣]. وقد نذكر في هذا الباب، نُزوح بعض المُفكّرين الغربيّين إلى حصر الفِكر الفلسفيّ في الجنس الأوروبيّ مثل: (مارتن هايدغر) و(هوسرل) و(جاك دريدا)، الشَّهير بتصريحاته العنصريَّة في خضَم زيارته إلى الصّين، هذه رؤية ثُنائيَّة حادَّة تُنكر تاريخ الآخر وإنسانيَّته، ولا تقبله إلَّا

---

١ - سيلا أحمد سالم عسيري: النزعة المركزية الغربية في الدراسات الاستشراقية، ص٤٥٢

٢ - هي أقرب إلى التاويل السردي للفعل الإنساني المنطلق من سردية تاريخية تخص الغرب الذي يرادف في ظل هذه السردية الإنسان بشكل عام، «السردية التاريخية بحد ذاتها لها جوانب عديدة: كالقصة الهرمينوطيقية، بإضفائها المعنى على مجموعة معقدة من الأفعال الفرديَّة، ومثلها القصة التي تعتمد على آليات سببية وهي تتعاضد مع بعضها وتخلق النتيجة.»

٣ - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص١٨٣

كمادَّة استعماليَّة[١] .

وبالتَّالي، فإنَّ عمليَّة الانغماس في تمجيد النَّموذج الغربيّ، جعلنا ننسى الشَّرق أو نركن تاريخه جانبًا، أو نقيم تمايُزًا تفضيليًّا يحجب الرُّؤية الكونيَّة عن باقي الشُّعوب، باستثناء العِرق الأبيض الغربيّ، ومن ثمَّ فإنَّ «تشجيع التمركز حول الذَّات هي من طبيعة الأوروبيّين. كانت موجودة دائمًا، لكنَّها اتخذت الآن صبغة تتَّسم بالازدراء الواضح للآخرين ...، وخصوصًا في ظلّ الإمبرياليَّة منذ منتصف القرن التَّاسع عشر»[٢]. كأنَّنا أمام عمليَّة إخراج كلّ النَّماذج غير الغربيَّة من التَّاريخ الإنسانيّ، ومرادفة التَّاريخ الإنسانيّ بالمقابل بمفهوم التَّقدُّم الغربيّ، وهو ما قام على أساس وجود حدود تمييزيَّة للعقل الغربي الممتد من الفلسفة اليونانيَّة إلى اليوم، وبالتَّالي أوجد عمليَّة الفصل والانفصال عن العالم، وهو داخل العالم نفسه؛ لأنَّ التَّمييز المعرفيَّ رسم بالمُقابل تمييزا عِرقيًّا في السَّرديَّة الغربيَّة، ومن ثمَّ فالتَّمركُز الغربيُّ هو «ظاهرة ثقافيَّة تفترض وجود ثوابث ثقافيَّة مميَّزة، تُشكّل المسارات التَّاريخيَّة للشُّعوب المُختلفة، ولذلك فإنَّ المركزيَّة معاديَة للكونيَّة (العالميَّة)، لأنَّها غير مهتمَّة بالسَّعي إلى قوانين عامة مُحتملة للتَّطوُّر الإنسانيّ.

---

١ - عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص١٧٠.

٢ - محمد عمارة: بين العالمية الإسلامية والعالمية الغربية، ص٨١.

ولكنَّها تقدّم نفسها باعتبارها كونيّةً؛ لأنَّها تزعم أنَّ تقليد جميع الشُّعوب النَّموذج الغربيّ هو الحلُّ الوحيد لتحديات عصرنا»[١].

إنَّ هذا التَّوجُّه لم يعُد قائمًا بنفس الحِدَّة، كما كان خلال حركات الاستقلال؛ حيثُ رفع تحدّي قيادة باقي الشُّعوب غير الغربيَّة بحجة خيّرة، في حين أنَّ الحجة الخيرة تتغاضى عن مطلب الاختلاف والخصوصيَّة الثَّقافيَّة لباقي الشُّعوب، لهذا فالغرب «لايهتم بكشف القوانين العامَّة الَّتي تحكم تطوُّر جميع المجتمعات. لكنّه يتقدَّم في ثياب العالميَّة؛ إذ إنَّه يقترح على الجميع محاكاة النَّمط الغربيّ بصفته الأسلوب الفعَّال الوحيد لمواجهة تحديات العصر»[٢]. هذه الهالة الَّتي رافقت عمليةً أسطرة النَّموذج الغربيّ والَّتي فُرضت بالقوَّة أو وفق التَّبشير الثَّقافيّ، لم تحقّق نهضةً للشُّعوب الضَّعيفة، بقدر ما عملت على سحب مواردهم الطبيعيَّة لصالحها، كما أفقدتهم الصَّلة بتراثهم، لأنَّها أوهمتهم أنَّ نَموذجها هو الأصلح، فما عليهم سوى مسح الطَّاولة وإعادة البناء وفق النُّسخة الغربيَّة، وعليه، فـ«إنَّ الحداثة الَّتي تحدّد المؤسَّسات، ويُحدّد مفكرو الغرب الحديث القَوي خطابها المُهيمن، قد أجحفت بحقّ ثلثيّ سكَّان العالَم الَّذين فقدوا تاريخهم،

١ - شيخاوي لخضر: نقد كونية المركزية الغربية، ص٢٤٤ .

٢ - سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، ص٧٥.

وفقدوا معه طرائق وجودهم العُضويّ»[١]. مماً أوضح وهم النَّموذج الغربيّ التَّسويقيّ الَّذي لم يسع إلى تحقيق الأفضل للإنسانيَّة، بقدر ما سعى للوصول إلى ما يدعم استمرار تفوُّقه وقيادته للعالم، إنَّ هويَّة الغرب «الَّتي شحنت نفسها بمقوّمات تاريخيَّة ودينيَّة وعِرقيَّة، واختزلت العالم غير الغربيّ إلى مجموعة أنماط حياتيَّة واقتصاديَّة غير واعية ومتعثرة وساكنة واستبداديَّة ومفتقرة لقوَّة الاستكشاف والتَّحليل والاستنتاج.»[٢]فالعالم غير الغربيّ بأعين الغرب، مُشكَّل من كل نقائض ما يُشكّل هويَّة الغرب، كأنَّنا أمام عمليَّة عكسيَّة ترسم حدوداً بين الشَّيء ونقيضه، السَّلب والإيجاب والإثبات والنَّفي. وهكذا، سُلِب الآخر كلّ مقوّمات الفاعليَّة البشريَّة في التَّعاطي مع بيئته ومع غيره ومع العالَم.

ومن ثمَّ، فإنَّ أسطرة النَّموذج الغربيّ أنتجت نوعًا من القطبيَّة الأيديولوجيَّة، الَّتي تقسم العالم إلى قطب اكتسب معجزةً تمنحه تفوُّقًا تاريخيًّا لا يُضاهى، أو يدخل باب المقارنة على حساب القُطب الآخر الَّذي يفتقر إلى هذه الخصوصيَّات؛ «إذ لايقتصر الأمر في المركزيَّات

---

١ - وائل حلاق: الدولة المستحيلة - الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي-، ص٣٣

٢ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، ص٢١.

الكُبرى على إنتاج ذات مُطلقة النَّقاء، وخالية من الشَّوائب التَّاريخيَّة، إنَّما -وهذا هو الوجه الآخر لكلّ تمركُز- لا بُدَّ أن يتأذَّى عن ذلك تركيب صورة مُشوَّهة للآخر»[١]. إثارة مصطلح الصورة هنا، يعني بالأساس أنَّ الغرب ينسج -وفق منظوره الخاص- صورةَ الآخر الَّتي تخدم توجُّهاته العامَّة في تزكية أحقيَّة الرَّفع من النَّمذجة الغربيَّة، فهو من أنتج ثقافة تَقدُّميَّة صانعة للتَّاريخ، والعالم أجمع يدين له بالفضل؛ لأنَّه أخرجهم من الظُّلُمات إلى النُّور، ومن ثمَّ فقد «انطوى الغربيُّ على امتياز خاص، فهو الوحيد الَّذي يتطابق مع مشروعه الثَّقافيّ، سواء أكان غربيًّا أم شرقيًّا؛ لأنَّه لا يعني بالموضوع القائم بذاته، والَّذي له شروط تكوُّنه الخاصَّة»[٢]. وهي خصوصيَّات نمَوذجيَّة ضروريَّة لتحقيق أو بلوغ مرتبة الغرب، أو على الأقلّ التَّساوي معه، فقد تمَّ تصوُّر الطرف الثَّاني (غير الغربي) بما هو وعاء فارغ مسلوب الفِكر والإرادة والهويَّة، ما دام حُكِم على هذه الهويَّة الثَّقافيَّة بالتخلُّف والبربريَّة في إطار مقارنتها مع ثقافة الكائن الغربيّ، أمَّا الطَّرف الأوَّل، فهو المُكلَّف بالثَّاني في إطار الخِلافة الأرضيَّة الَّتي أهلته إليها نباغته الفكريَّة والعقليَّة. لهذا «كانت المركزيَّة الغربيَّة أشد تمركُزًا من نظيراتها الإسلاميَّة، ذلك أنَّها

١ - عبد الله إبراهيم: في نقد المركزيات الثقافية، موقع إيلاف الإلكتروني.
٢ - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص١٨٥-١٨٦.

شيَّدت رؤاها الثَّقافيَّة على مبدأيّ الاختلاف والنَّفي، اختلاق الآخر النَّظير والنَّقيض في الآن نفسه، وإثبات الذَّات بنفيه وإقصائه، إنَّها ثقافة متعالية: فقد جرى استبعاد المؤثّرات الخارجيَّة، وبخاصَّة الشرقيَّة، وأُعيدَ إنتاج ثقافة غربيَّة صافية لا تقبل المُزاحمة والشَّراكة»[١].

يَعكس مُصطلحُ الأسطرةِ نمطًا مُمنهجًا ومؤطَّرًا بشكلٍ مُكثَّف، هذا التَّوجُّه المُغلَّف بتعميم الحضارة الغربيَّة تحوَّل إلى لافتةٍ للسَّيطرة بشكل طاغٍ، فلم نعد كما كنَّا سالفًا أمام سرديَّة غربيَّة تسعى لنشر الحضارة وتحقيق التَّبادُل الثَّقافيّ الإنسانيّ، بل صرنا أمام تغوُّل غربيّ، تعاظم بفعل تبعيَّة الآخر وتفوُّق الأنا، هذا التفوُّق الَّذي بلوره في هيئة هيمنة صناعيَّة وثقافيَّة، لهذا «نجح الغرب في تحويل العالم الإسلاميّ إلى سوق لاستهلاك منتجاته الصَّناعيَّة والثَّقافيَّة، وبهذه الثَّقافة الماديَّة يسعى الغرب إلى حُكم الشُّعوب، وفرض نوعًا من القيصريَّة الطاغية، دون أن يهدف إلى نشر حضارة»[٢]. فصرنا أمام تجدُّد أشكال السَّيطرة الَّتي تستبق الزمن لاستدامة تفوُّقها مستقبلاً.

إذًا، لقد انتقلنا من أسطرة النَّموذج الغربيّ إلى أسطرة النَّموذج

---

١ - عبد الحق بلقيدوم: «الذات والآخر من خلال المركزيات الثقافية»، ص٣٧.

٢ - عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق: نقد الحضارة الغربية في فكر مالك بن نبي، ص٤٨.

الأمريكيّ، أو أمركة العالم عبر أذرعها في باقي العالَم، وتمُثّل «إسرائيل» نَموذجًا لهذا الامتدادَّ الَّذي يمُارس العنصريَّة المُعاصرة والمُهيكَلة في إطار دولة ديموقراطيَّة بالمعنى العرقيّ والقوميّ، فلم نعد أمام كولونياليَّة استعماريَّة، بل نيوكولونياليَّة تنتعش على النَّموذج الأمريكي في استباحة الأرض ونَفي صاحب الأرض، ممَّا منحه أولويَّة تحديد القِيم الَّتي تناسبه دون أن يتَّكئ على مرجعيَّة ملزِمة، «التَّنميطُ والإرغام وفرض المعايير الوحيدة على كلّ العالم. هذا هو البرنامج -إذا شئت- الثَّقافيُّ والسّياسيُّ الذي يقوم عليه المشروع الغربيُّ في حقبته الأمريكيَّة الرَّاهنة»[1].

إنَّ عمليَّة الأسطرة تعكس ظاهريًّا جانبًا إيجابيًّا، لكنَّ جوهرَها أو ما تقوم عليه، هو توجُّه سلبيٌّ يقوم على النَّفي والتَّراتبيَّة، هذا المنطق القائم على الوصاية الإرشاديَّة يفرض نمذجةً إرشاديَّة تقود باقي الشُّعوب لمصافّ الطَّريق الَّذي أوصل النَّموذج لما هو عليه. كأنَّها وصاية أبويَّة، تكفَّل الغرب بممارستها تجاه غير الغربيّ، هذه الوصاية الَّتي تتراوح بين الفعل القسريّ والترغيبيّ، تفرض مسارًا وحيدًا للإنسانيَّة تغض الطَّرف عن إمكانيَّة تعدُّد أوجه الثَّقافات، فـ«بدلاً من أن تُشبِه الإنسانيَّة آلاف الفسائل المتفتحة أزهارًا متنوّعة، فهي قد تُشبُّه

١ - عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الأوروبية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية الإلكتروني.

بموكب هائل من العربات ممتد على طول الطَّريق. بعضها يُجرُّ بطريقة حتميَّة باتجاه المدينة، بينما البعض الآخر يستقر في مُخيَّمات في عراء الصَّحراء، ومنها ما يغوص في أخاديد الممرّ الجبليّ الأخير، أثناء عبور الجبال»[١].

ممَّا رسم حاضرًا لعالم متوحش بشكلٍ مدعوم بالتَّقدُّم بكل أشكاله، «جاءت رأسماليَّة الليبراليَّة المتوحشة منذ عهد رونالد ريغان (Ronald Reagan) بأمريكا، ومارغريت تاتشر (Margaret Thatcher) ببريطانيا؛ وهي الَّتي تسود اليوم. ليبرالية متوحشة ماليَّة، صحيح متوحشة؛ استمرار لأبشع أشكال العبوديَّة الَّتي كانت في العصور القديمة، ولكن اليوم طبعًا بوسائط أفعال في إيذائها للإنسان والحقوق الإنسانيَّة، هذه الرأسماليَّة هي الَّتي جنت على البشريَّة كل هذه الجرائم الَّتي نعيشها اليوم»[٢]. نحن اليوم أمام تشكُّل جديد للسّياسة العالميَّة تفقد من خلالها أوروبا وزنها وتستأثر الولايات المتحدة الأمريكيَّة وحدها بإعادة ترتيب العالم وفق مصالحها، لكن رغم هذا المنحى العالميّ الَّذي صارت بوادره تطفو للعيان، فإنَّ التَّوجُّه العُنصريَّ أو التفاضليَّة الثَّقافيَّة لازالت

١ - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، ص٣١٠.ذ

٢ - عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الأوروبية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية الإلكتروني.

مستمرة عبر مسار مختلف نسبيًّا، وهو مسار القوَّة والسَّيطرة والتَّحكُّم المباشر في العالم، دون الحاجة لرفع لافتة التَّبشير الثَّقافيّ كما كان الأمر سابقًا.

■ المَبحَثُ الثَّالثُ: مُواجَهةُ العُنصرِيَّةِ الثَّقافِيَّة الغَربيَّة.. ضَرُورةُ النَّقدِ المُزدَوَجِ:

إنَّ مُصطلحَ المواجهةِ هنا لا يُحيل بالضَّرورة على تصدٍ مَبنيّ على ثُنائيَّة ضدّيَّة شرق/غرب، وجنوب/ شمال، رغم أنَّ المركزيَّة الغربيَّة القائمةَ على القُطب الواحد، أفرزت نوعًا من العداء والتَّصنيف الحدّي ما بين الشَّرق والغرب، بل إنَّ المُصطلح يرنو إثارة العدَّة المعرفيَّة لإبطال التَّوجُّه العنصريّ، أو تبيان تهافته القائم على التَّشوُّه الثَّقافيّ في السّياقين الغربيّ والعربيّ، وكذا إبراز أهميَّة اختلاف الثَّقافات وعدم قابليَّتها للتَّطابُق، الَّذي أفقدها جوهر تميُّزها وكذا غناها المعرفي، لهذا أردفنا مفهوم النَّقد المُزدوَج إلى جانب مصطلح المواجهة/التَّصدي؛ لأنَّ المُواجهةَ المبنيَّة على نقد مُزدوج لا تسمح -في إطار مواجهة العُنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة- بإنتاج عنصريَّة مضادَّة أو تمركُز آخر مضاد، حتَّى وإن كان يبنى على مظلوميَّة أو تبخيس وفق تراتبيَّة تفاضليَّة ترتفع عن الكلّ، وهو ما تناوله بشكل مستفيض المُفكّر (عبد الله إبراهيم) منتقلاً في عمليَّة تقصّيهِ النَّقديّ، ما بين المركزيَّة الإسلاميَّة والمركزيَّة الغربيَّة،

وكذا استجابة الثَّقافة العربيَّة للمركزيَّة الإسلاميَّة والغربيَّة. ومن ثمَّ يمُكن الإشارة إلى أنَّه «لا يوجد قبل عبد الملك نقد أيديولوجي يُبرز العَلاقة المباشرة بين العِلم والاستعمار»[1]. إنَّ الصَّحوة النَّقديَّة في السّياق العربيّ الإسلاميّ لم تكن وليدةَ اليَوم، بل مرَّت عبر مرحلتين: المرحلة الأولى، ارتكزت على الجانب الدّينيّ مع تهميش المُعطَى السّياسيّ. في المرحلة الثَّانية، سيطفو هذا الجانب بشكلٍ قويّ، خصوصًا مع أعمال (إدوارد سعيد)؛ إذ المرحلة الأولى تزامنت مع عصر النَّهضة الفِكريَّة الحديثة في العالم الإسلاميّ؛ حيثُ اتَّخذ النَّقد خلال هذه المرحلة طابَعًا دينيًّا نوعًا ما، وهو ما استدركته المرحلة الثَّانية؛ حيثُ تمَّ اتّباع -خلال هذه المرحلة- الثَّقافة المُزدوَجة والانطلاق من توجُّه علماني لا يرتبط بالجانب الدّيني، خصوصًا الإسلامي، الَّذي صار هو أيضًا تحت مظلَّة الأهداف الغربيَّة «وهكذا تتَّسم الكتابات الحالية عن الاستشراق بأنَّها في أغلب الأحيان أُحاديَّة الجانب. ولست أعني بذلك أنَّها تتجاهل أيَّ جانب آخر في موضوع الاستشراق، وإنَّما أعني أنَّ تركيز فئة منها على الجانب الدّينيّ يمنعها من أن تُدرك بوضوح الأبعاد السّياسيَّة والحضاريَّة للمُشكلة وتُعطيها ما تستحقه من أهميَّة، على حين أنَّ إرجاع

---

١ - مجموعة من المؤلّفين: «إدوارد سعيد- من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف-»، ص٣٥.

الفئة الأخرى مشكلات الاستشراق كلّها إلى العامل السّياسيّ الحضاريّ يحول بينها وبين عمل حساب كاف للبُعد الدّيني»[١].

فقد يكون الاستشراقُ هو الحافز الرَّئيس الَّذي بلور فكرًا نقديًّا تجاه المركزيَّة الغربيَّة، واستطاع إثارة المنظور الغربيّ لكيف يرى الشَّرق، تلك النَّظرة الَّتي يؤطرها البُعد المعرفيُّ والاستعماريُّ والاستعلائيُّ، ممَّا جعل من الاستشراق مطيَّة لإثارة العوز التَّواصُلي، الَّتي تُعبر عنها أنماطُ الفَهم ما بين الشَّرق والغرب، لهذا فإنَّ «الاستشراق في حقيقة الأمر كان ولايزال جزءًا لايتجزَّأ من قضيَّة الصراع الحضاريّ بين العالَم الإسلاميّ والعالم الغربيّ، بل يمُكن أن نذهب أبعد من ذلك ونقول: إنَّ الاستشراق يمُثّل الخلفيَّة الفِكريَّة لهذا الصراع»[٢].

فانتقلنا في السّياق الشَّرقيّ، من عمليَّة التَّعريف بالرَّصيد المعرفيّ الاستشراقيّ مع (عبد الرحمن بدوي) مثلاً، إلى رفع السَّقف عبر وضعه تحت مجهر النَّقد، ومواجهة الآلة التصنيفيَّة الغربيَّة للعالم العربي والإسلاميّ، «أمَّا عربيًّا، فقد تمَّ مواجهة المركزيَّة الغربيَّة، كما نوَّه المُحاضر، بالتَّمركز المعكوس بلغة الكاتب (سمير أمين) أو بالنَّقد

١ - فؤاد زكريا: نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة، ص٩-١٠.

٢ - محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص١١.

التَّاريخي عند (عبد الله العروي)، أو الاستغراب عند (حسن حنفي)؛ أي بتحويل الغرب من ذات تتحكَّم فينا، إلى موضوع للتَّحليل والنَّقد، أو بالتَّغريب والذَّوبان بالغربِ، ردًّا على الاتّجاهات الماضية والسلفيَّة، الَّتي رفضت الغرب وقِيَمه من حيثُ المبدأ»[١]. غير أنَّ المواجهة تطلَّبت عمليَّة القيام بنقد مُزدوج تجاه الأنا وتجاه الآخر؛ لأنَّ مواجهة العنصريَّة الثَّقافيَّة في إطار توجيهٍ نقديّ، يَنتج عنه مسار ثنائيٌّ لا يحقّق نهضةً للأنا، ولا عَلاقة متوازنة مع هذا الآخر المُتفوّق ثقافيًّا، لهذا كان لا بدَّ من بلورة نقدٍ مزدوج، وقد تكون أسماءٌ مثل (إدوارد سعيد وأنور عبد الملك وسمير أمين ومحمد أركون وحسن حنفي ومحسن مهدي) وغيرهم، لكن يمُكن القول إنَّ أبرز الأسماء كانت هي الَّتي تجمع بين الثَّقافتين الغربيَّة والعربيَّة الإسلاميَّة معًا، وبهذا «كانوا يستطيعون التَّنقل السلس بين المنظومتين من دون الشعُّور بالنَّقص، أكثر من هذا؛ كانوا يشعرون أنَّهم إذ يقاسمون مثَّقفي الغرب مرجعيَّاتهم ومدوناتهم الفِكريَّة، يتفوقون عليهم بالمعرفة بمجال ثقافيّ حضاريّ آخر لا يعرفونه؛ لا يعرفه هؤلاء الغربيُّون»[٢].

---

١ - زهير توفيق: حوارية فكرية في رابطة الكتاب حول المركزية الثقافية الغربية، موقع الغد الإلكتروني.

٢ - عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الأوروبية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية الإلكتروني.

فقد تكون مسألة الانبهار الَّذي حدث للعالم غير الغربيّ أمام إنجازات العالَم الغربيّ أبطل أو عطَّل عمليَّة النَّقد خارج الذَّات، وتمركزه بالمقابل تجاه الذَّات ومعوّقات عمليَّة الانصهار في القالب الغربي. هذا التَّأخير في بلورة نقد صوب نَموذج إرشاديّ، عمل على تفاقم المركزيَّة الغربيَّة، وهو ما أنتج صراعات ونزاعات يقودها بالأساس التَّوجُّه العنصريُّ لأجل استدامة المركزيَّة النَّموذجيَّة للغرب الثَّقافيّ، ومن هنا كانت «التنازُعات الكُبرى، هي نتاج لمركزيَّات ثقافيَّة وجدت لها دعمًا من أطراف التَّنازع، وبسبب غِياب النَّقد الَّذي يُجرّد تلك المركزيَّات من غلوائها، في نظرتها المُغلقة إلى نفسها وغيرها، فقد تصلَّبت تصوراتها، واصطنعت لها دعامات عِرقيَّة أو دينيَّة أو ثقافيَّة، أدَّت إلى زرع فكرة السّمو والرّفعة في الذَّات والدُّونيَّة والانتقاص في الآخر، ومع أنَّ كثيرا من أطراف العالم تداخلت في مصالحها وثقافاتها وأفكارها، لكن ضعف الفِكر النَّقديّ حال دون أن تتلاشى المركزيَّات الكُبرى»[1]. إذًا، قد تكون الأسطرة الَّتي حظي بها النَّموذج الغربيُّ قد ساهم بأمرين: تقوية النَّزعة العنصريَّة والمركزيَّة للذَّات الغربيَّة، وتقزيم قدرات الآخر الَّذي عمل على نوع من جلد الذَّات والنَّظر إليها نظرة تبخيسيَّة.

١ - عبد الله إبراهيم: في نقد المركزيات الثقافية، موقع إيلاف الإلكتروني.

خلال ثمانينيَّات القرن العشرين، تنامى الفكر النَّقديُّ الَّذي يُسائل النَّموذج الإرشاديَّ نفسَه؛ إذ لم يقتصر التَّوجُّه النَّقدي لغير الغربيّ تجاه التَّوجُّه الثَّقافيّ الغربيّ، الَّذي يُوجّه عنصريَّة ثقافيَّة على المُفكرين غير الغربيّين، بل كان هناك مجموعةٌ من المفكرين الغربيّين الَّذين أعلنوا عن هذا الانزياح الغربيّ خارج الصُّورة الثَّقافيَّة النَّموذجيَّة المُعلنة، ومنهم (ميشيل فوكو) وفانز فانون (Frantz Fanon)؛ حيثُ «تمثل أعمال (فانون) محاولة للتَّغلُّب على الرُّؤى النَّظريَّة العنصريَّة والاستعلائيَّة، عن طريق ثقافة المُقاومة القادرة على ابتكار النُّفوس الجديدة»[١]. يقول (فانز فانون): «السَّرد الغربيُّ عن التنوير والتَّحرُّر كشف النّقابَ عن نفاق عاصف، وبالتَّالي تحوَّل تمثال رُقي الحضارة اليونانيَّة - اللاتينيَّة إلى غبار»[٢]. هذا الكشف الفاضح لأُسس وتوجُّهات أيديولوجيَّة للعنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة، أُوضّح أنَّ الأمر لم يرتبط فقط بسطوة الرُّقي الحضاريّ الغربيّ وزيفه، بل برهن أيضًا على هشاشة ذاك الآخر وضعفه، الَّذي سلَّم لعقود بامكانيَّة استلهام النَّموذج الغربيّ بشكلٍ أمين، وفي غياب أي فاعليَّة نقديَّة. وأنَّ هذه الهشاشة الَّتي طمحت لترميم نفسها عبر

---

١ - مجموعة من المؤلّفين: «إدوارد سعيد- من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف-»، ص٤٤.

٢ - مجموعة من المؤلّفين: «إدوارد سعيد- من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف-»، ص٤٥.

النَّموذج الغربيّ، قد شكَّلت دعامةً لتقوية نظرةٍ استشراقيَّة تتغذَّى على التَّفوُّق والإرشاد والقيادة. ومن ثمَّ «يمُكننا الإقرار بأنَّ الأوان قد آن لكي يتخلى الغرب عن نظرته الاستشراقيَّة لتبيان أنَّه هو من يصنع التَّاريخ ويُحقّق فائضه، ومهمّته الرسوليَّة هي تحقيق الانتشار والتعميم نظرًا إلى أهميَّته القِيميَّة المتمركزة حول الفرد وحقوقه وحاجاته في الحياة. بطبيعة الحال، كل تلك الفَرضيَّات أثبتت زيفها ومعاييرها المُزدوجة، وذلك لأنَّ الانتشار والتَّوسُّع وازعه أيديولوجي وكولونيالي عنصري»[1]. هذا الوازع الأيديولوجي العنصريُّ، لايستطيع الغرب التَّطبيع معه بشكلٍ مباشر؛ لأنَّ الأمر سيُفقده فرصةَ إغناء خصوصيَّته عبر السَّماح بالانفتاح على ثقافات مُختلفة، ما دام أنَّ «تعدُّد الثَّقافات رحمة، لأنَّه في الحوار تكمُن فرصةُ التَّعلُّم. وبدلاً من محاولة إلحاق الآخر بنظام الأنا، يتوجَّب على كل إنسان الاعتراف أنَّ بداخله يكمن بربري»[2]. بمعنى أنَّ الإشكال قد لايتعلَّق بالضَّرورة باختلاف الآخر وكيفيَّة إدماجه في مسار الأنا، وإنَّما في قصور الرُّؤية النَّقديَّة للذَّات، وما تكنزه من عنصريَّة تزيح كلَّ أشكال التَّبشير الثَّقافي، بما هو أفق ثقافيٌّ خيرّ يجب

---

١ - دارم البصام: نهاية التاريخ المعاصر ومحنة المركزية الغربية، موقع مركز دراسات الوحدة العربية الإلكتروني.

٢ - حسام الدين فياض: فلسفة الآخر والغيرية عند تزفيتان تودوروف، موقع شبكة النبأ الإلكتروني.

أن يعُمَّ ويضمَّ الكلَّ الكونيَّ.

وبالتَّالي، قد تكون أُسس النَّقد الحداثيّ ذاتها من هيَّأت لظهور هذه العنصريَّة الثَّقافيَّة، لأنَّها لم ترقَ فعليًّا لمستوى النَّقد المُشكِل للهويَّة الغربيَّة في بُعدها الذَّاتي والعالمي، لهذا «لكي يحوز النَّقد التنويريُّ على الكفاءة اللازمة كان واجبًا عليه أن يعترف بالتَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة، وأن كونيَّة حقوق الإنسان والعقل الإنسانيّ لا تنفي أنَّ المُجتمعات الإنسانيَّة المُختلفة قد تُنتج مؤسَّسات وعادات ثقافيَّة، ونظم حكم مختلفة ومتنوعة، قد تختلف عن تلك الَّتي أنتجتها العقلانيَّة الأوروبيَّة، والَّتي اعتاد الأوروبيُّون على وصفها بالهمجيَّة وغير المُتحضّرة»[1].

إنَّ الوعي بحضور العنصريَّة الثَّقافيَّة في ثنايا عمليَّة التَّبادُل الثَّقافيّ بين الغرب وغيره، قد أوجد عدَّة أُطروحات تدعم القول إنَّ الغرب ذاته لم يُشكّل نموذجًا إرشاديًّا تقدُّميًّا واحدًا، فصرنا نتكلَّم عن حداثات، وعلمانيَّات، ومن ثمَّ قد «ينخرط نقد الثَّقافة الغربيَّة في سياق أطروحة تزعم أنَّ الحداثة حداثات، وليست مجرَّد بضاعة جاهزة للطَّلب بحسب منطق الاستيراد والاستهلاك، وإنَّما هي مشروع تاريخيٌّ كونيٌّ تبنيه الثَّقافات والمُجتمعات من مادة/مواد محليَّة، مستفيدة من خبرات

---

١ - عصام حمزة: مفهوم الكولونيالية - كيف تستعبد العالم باسم الحرية-، موقع إضاءات الإلكتروني.

الثَّقافات والمجتمعات كافَّة»[١]. إنَّ هذا الوعيَ تجاه التَّبشير الثَّقافيّ الغربيّ، بيَّن أنَّ الحديث عن نَموذج جاهز وواقع فارغ وتاريخ تصاعُدي، كلام لا يستقيم منطقيًّا ولايسمح بإغناء المُشترك الكونيّ الإنسانيّ بقدر ما يجعل من عمليَّة الانصهار المُتعدّد في قالب الواحد، عمليَّة فقيرة لا تُغني أحدهما، بقدر ما تُولّد نزوعًا نحو العنصريَّة والسَّيطرة والهيمنة. وبالتَّالي، تهميش القِيم الخُلُقيّة الواجب توفُّرها لاستدامة استمرار الفعل الثَّقافيّ الكونيّ بين الشُّعوب.

خَاتمة:

رغم اعتماد النَّقد منهجيَّة رئيسة في التَّوجُّه التَّأمُّليّ الغربيّ، خصوصًا خلال الفاصل الزَّمنيّ ما بين نهاية الحداثة وما بعد الحداثة؛ إذ إنَّ «الثَّقافة الغربيَّة قد انخرطت في معمعة النَّقد الذَّاتي، ولا يُمكن النَّظر إليها بوصفها كتلة صمَّاء مُتمركزة حول نفسها، دون أيَّة إمكانيَّة للنَّقد، فالحداثة الغربيَّة انطلقت حينما فتحت الأبواب أمام النَّقد»[٢]، ولكنَّها مع ذلك، سلكت منهجًا في بعض أوجُهه عنصريًّا ويعكس توجُّها

١ - عبد الواحد ايت الزين: الثقافة الغربية ومطلب العدل الفكري: - نقد الحداثيين أنموذجا -، موقع مركز دراسات الوحدة العربية الإلكتروني.

٢ - عبد الله إبراهيم، في نقد المركزيات الكبرى، مجلة إيلاف الإلكترونية.

أيديولوجيًّا يخدم مركزيَّتها وتفوُّقها، وهو توجُّه تنتفي معه أيُّ معياريَّة قِيميَّة أو خُلُقيّة، لهذا فإنَّ «أوروبَّا الَّتي نتحدَّث عنها: يعني أوروبَّا الأنوار والإصلاح الدّيني والعلمانيَّة والديموقراطيَّة والوحدة القوميَّة والنَّهضة ... وغيرها: هي الَّتي أنجبت الاستعمار. هي الَّتي أنجبت كلَّ الوساخات، الَّتي وصلت إلى اللحظة القُصوى مع النَّازيَّة والصهيونيَّة»[١]. فالغرب يحمل وجهين: وجه ثَّقافيّ مُشرق، ساهم في تحقيق عتبة تاريخيَّة مختلفة عمَّا سبقها، ووجه بشع تمَّ من خلاله توظيف الوجه الأوَّل لتمرير التَّوجُّهات السُّلطويَّة، للرفع من قِيمة وتفوُّق الجنس الأبيض.

فالتَّوجُّه النَّقديُّ يخدم المصلحة الأوروبيَّة لحصولها على الاصطفاء الكونيّ، رغم كلّ مظاهر التَّقدُّم الَّتي حملته للعالم، لكن هناك جانبًا مُظلمًا تحمله هذه الثَّقافة، ومن ثمَّ سهل القول «باختصار الثَّقافة الغربيَّة لا تقبل الاختزال والتَّبسيط، ومع ذلك ففيها من مظاهر التَّمركُز حول الذَّات ما لا ينبغي إغفاله أو نكرانه. فهي في عمومها ثقافة متعالية، متمحورة حول نفسها، قوامها النَّظر إلى الآخر نظرة دونيَّة منذ الفلسفة الإغريقيَّة إلى الآن»[٢]. صحيح أنَّ الغرب قد تحطمت صورته

---

١ - عبد الإله بلقزيز، الاستشراق والمركزية الأوروبية، موقع مجتمع للدراسات الثقافية الإلكتروني.

٢ - حوار مع عبد الله إبراهيم، في نقد المركزيات الثقافية، موقع إيلاف الإلكتروني.

النَّموذجيَّة مرارًا، خصوصًا من خلال الأزمات العالميَّة وازدواجيَّة المعايير المتَّخذة في التَّعامل بين الدُّول الخارجة عن نطاق الانتماء العرقيّ، فـ«ثقة الغرب في احتكاره العقلي بدأت تتزعزع في النّصف الثَّاني من القرن العشرين؛ ذلك أنَّ أزمة الفيزياء والعلم المُعاصر، قد طَرحت للنّقاش أُسس المنطق القديم، والاتصال بالحضارات الكُبرى المختلفة فِكريًّا عن حضارتها(..) حطَّم إطار النَّزعة الإنسانيَّة القديمة»[1]. رغم ذلك، تظلُّ عمليَّة انخراطنا ضمن هذا النَّموذج أمرًا واقعًا ينتج عنه عدة أمور، ممَّا يفرض تجديد عَلاقتنا مع ذاتنا، حتَّى ونحن نحاول الاستمرار في استلهام النَّموذج الغربيّ، لأنَّه صار جزءًا من مكوّناتنا الهويَّاتيَّة. لهذا وجب الوعي بالتَّوجُّه العنصريّ والتَّمركزيّ للغرب، والعمل على نزع الأسطرة عن النَّموذج الغربيّ بشكل نقديّ لا ينجر نحو النَّزعة التَّنويريَّة العمياء، ومنه الوعي بإمكان التَّقدُّم الهويَّاتي الخاص بنا. أن نعيد القُدرةَ على التَّبادُل الثَّقافيّ مع الغرب خارج نَموذَجه الَّذي يستجيب لخصوصيَّة سياقيَّة وتاريخيَّة لا تقبل بالضَّرورة بالتَّعميم والنَّمذجة، لهذا فإنَّ «ما فقدناه...، هو الحريَّة الرُّوحيَّة تجاه الغرب، والقدرة الأصليَّة على معاصرته من خارج سلوكه الكولونيالي، دون تبعيَّة معرفيَّة مكرَّسة بالمدرسة الرسميَّة الَّتي تُشرف عليها دولة

١ - كمال عبد اللطيف: نقد المركزية الثقافية الغربية، موقع العربي الإلكتروني.

الاستقلال»[١]. فرغم أنَّ الثَّقافة الغربيَّة تواجه اليوم تحديات استوجبت قراءات نقديَّة جديَّة أنتجت مراجعات لجُلّ السرديَّات الإطلاقيَّة، ولكنَّه لازال يحوز على السَّبق العلمي والتَّقدُّم. هذا التَّقدُّم الَّذي لم يكن مسارًا للحدّ من أشكال العنصريَّة، بقدر ما نسج انزياحات للمركزيَّة الغربيَّة الَّتي تتغذَّى على التَّوجُّهات السّياسيَّة والثَّقافيَّة.

وعليه، فالعنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة، سواءً القديمة أو المُعاصرة، فإنَّها تظلُّ تُعبرّ عن طبيعة النّظام العالميّ. فقديمًا كانت تُعبرّ عن الإمبرياليَّة العالميَّة، واليوم تعكس النّظام العالميَّ الجديد الَّذي يتَّسق مع نمط توسيع الاستهلاكيَّة العالميَّة، إنَّ مسار هذه العنصريَّة المُتجددة والمنسلخة باستمرار عن جلدها، ترسم سقفًا منيعًا أمام التَّحرُّر من قيودها، فهي لا تقبل سوى الاستسلام والخضوع لإرادتها ومعاييرها. «يعتبر معيار الطَّاعة والولاء من أهمّ المعايير الَّتي تستخدمها دول التَّمركُز الغربي، في تقييمها لدُول الأطراف، ولذا فإنَّ الدَّولة الَّتي تمتثل لإملاءاتها يُغتفر لها ما لا يُغتفر لغيرها، ومن تخرج عن ذلك المعيار فإنَّها تصبح عدوًّا، وتجند ضدها ماكينة الإعلام الضَّخمة»[٢]. إنَّ الوعي

---

١ - فتحي المسكيني: لا معنى للحرية تملك مضمونا جاهزا، موقع الفيصل الإلكتروني.

٢ - عبد اللطيف بن عبد الله بن محمد الغامدي: المركزية الغربية وتناقضاتها مع حقوق الانسان، ص٢٨١.

المُتزايدَ بأشكال العُنصريَّة الثَّقافيَّة الَّتي تمتزج بالفِكر الثَّقافيّ الغربيّ، أوجب مراجعةً وتوجُّسًا تجاه الغرب، لكنَّ هذا الوعيَ جاء -نوعًا ما- متأخرًا، إذ استطاع الغرب التَّقدُّم أبعد ممَّا كان عليه، وصار هو المسيطر على المسار العالميّ، ومن هنا «يمُكننا القول إنَّ الإمبرياليَّة الثَّقافيَّة كما يُسمّيها المفُكر اللامع (إدوارد سعيد) هي المُسيطرة الآن، والَّتي يعتبر تعريفها الأقرب للصَّواب أنَّها «فرض ثقافة على أخرى في عمليَّة تلعب فيها وسائل الإعلام دورًا محوريًّا، بوصفها ناقلات للمعاني الثَّقافيَّة الَّتي تخترق ثقافات الأمم الأدنى مرتبة وتُسيطر عليها»[1].

وفي النّهاية، يمُكننا تسطير أهم الخُلاصات:

- وَجب نزع الأسطرة عن النَّموذج الغربيّ، بما هو نموذج يرسم سِياق ثقافة معيَّنة أكثر منه نموذج إرشاديّ يجب اعتماده بشكل تامّ وأمين وحتمي، صحيح أنَّه نموذج استطاع تحقيق عتبة تاريخيَّة مهمَّة للبشريَّة، غير أنَّ هذه العتبةَ، بقدر جوانبها الإيجابيَّة على البشريَّة، بقدر انزياحها العُنصريّ الَّذي قسَّم العالم لمستغِل ومُستغَل، وجدَّد صور العبوديَّة والعنصريَّة

١ - عبد اللطيف بن عبد الله بن محمد الغامدي: المركزية الغربية تناقضاتها مع حقوق الانسان، ص٣١٥.

في نماذج ثقافيَّة جرَّدها من قيمتها الإنسانيَّة. ومن ثمَّ ضرورة رفع حس ودرجة التَّوجُّس من التَّماهي مع المركزيَّة الغربيَّة والتَّغاضي -عن وعي أو بحضوره- عن حيثيَّات ودواعي هذه المركزيَّة، الَّتي تؤسّس لأشكال متعدّدة من العنصريَّة الثَّقافيَّة الَّتي تخالف القيَم الإنسانيَّة في بعض أوجُهها.

- تثمين الهويَّة الذَّاتيَّة، وعدم إقصائها، أو الاصطفاف جنبًا إلى جنب مع المقاربة المعياريَّة الَّتي تقوم على تبخيس التراث الهويَّاتي لصالح نَموذج آخر، بدعوى تفوُّقه؛ لأنَّ عمليَّة مسح الطَّاولة وطرح نموذج بديل لايسمح أبدًا ببناء بنى أو سيرورة تاريخيَّة، بقدر ما يحوّل تاريخ التَّجارب الإنسانيَّة إلى مقاطع منفصلة ومُتعاكسة. فعمليَّة التَّبادُل الثَّقافيّ أو الحوار الثَّقافيّ، لا يجب أن تنطلق من أرضيَّة عرجاء تُقزّم الذَّات لأجل الرَّفع من الآخر؛ لأنَّها لا تُحقّق المَطلب الثَّقافي، بقدر ما تعمل على تعميق الهُوَّة بين الشُّعوب، وتفقد هذه الشُّعوب الحقَّ في النَّقد وتوليد نَموذجها الخاص، أمام طُغيان الحداثة الكولونياليَّة الَّتي لاتسمح إلَّا بالنَّموذج الوحدويّ.
- التَّمييز ما بين المُقاربة المعرفيَّة الَّتي تقوم على التَّبادُل الثَّقافيّ والحوار ما بين الحضارات، والُمقاربة المعياريَّة الَّتي تسعى لاصطفاف ثقافة خارج مسار تاريخ باقي الشُّعوب، وهي

مسألة تُفرغ البِنى المعرفيَّة من مضمونها، وترفع أو تُثمّن المقاربةَ الأيديولوجيَّة؛ إذ لا ترتبط عنصريَّة الغرب بالفِكر الغربيّ بشكل مباشر، بل بنمط هيمنته ورؤيته المانويَّة، القائمة على الرَّفع من ثقافته وتهميش الآخر، فليس الصّراع الهويتيّ هو المحدّد أو العدَّة المعرفيَّة في حدّ ذاتها، أو القِيَم الإنسانيَّة بغضّ النَّظر عن مصدرها، بل الصراع حول مشروع الهيمنة الغربيَّة ذاته. ما دام أنَّ تغييب التَّأويل الثَّقافيّ لباقي الشُّعوب، وكذا قدرته على قراءة التَّاريخ هو عنصريَّة ثقافيَّة، لا تسعى لنشر الحضارة بقدر ما ترنو تحقيق الغلبةِ الثَّقافيَّة الَّتي تخدم أرضيَّة الهيمنة السّياسيَّة.

- مواجهة العنصريَّة الثَّقافيَّة الغربيَّة، لاتستوجب بالضَّرورة الدُّخول في معارك مع الغرب، أو قراءة المشهد بناءً على ثنائيَّة قطبيَّة تصنّف العالم إلى شرق وغرب، توجُّه كولونيالي وديكولونيالي (decolonial)؛ لأنَّ «الغرب قد نجح في تنصيب أبويَّة كولونياليَّة عالميَّة، لن يكون قتل الأب فيها مُمكنا إلَّا بشكل عائليّ»[1]. لهذا يصعُب إيجاد أرضيَّة صُلبة

١- فتحي المسكيني،: لامعنى للحرية تملك مضمونًا جاهزًا، موقع الفيصل الإلكتروني.

خارج المضمار الَّذي فرضه الغرب، من هنا يفضل استثمار الوجود من الدَّاخل لخلق هُوَّة الانعتاق من هذه التَّبعيَّة، وهو استثمار لا يتأتَّى بمعزل أو بعيدًا عن مطلب وضرورة بناء تحالُفات إقليميَّة وقوميَّة.

لائحة المصادر والمراجع

- ج. ب. بيري: فكرة التقدم، بحث في نشأتها وتطورها، تر. عارف حديقة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، لا ط، ١٩٨٨م.
- عبد الله سامي أبو لوز: مراجعة كتاب خدعة الحضارة الغربية: أشكال العنصرية والاستعمارية المعاصرة، لصاحبه كايندي أندروز، ١٢مارس ٢٠٢٣، www.UltraSawt.com
- فتحي المسكيني: لا معنى للحرية تملك مضمونًا جاهزًا.. والمفكر الذي يحمل هوية جاهزة هو داعية يحرس جثة، حاوره عادل ايت واعزيز، وإلياس أبو الرجاء، مايو ١،٢٠٢٤، حوار، الفيصل، www.alfaisalmag.com
- أحمد عبد الحليم عطية: عبد الوهاب المسيري - دراسة في سيرته المعرفية ونقده لقيم الحداثة الغربية -، سلسلة نحن والغرب، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، لام، ط١، ٢٠١٨.
- برايان فان نوردن: عنصرية الفلسفة الغربية، تر. موسى غزواني، حكمة، ٢٠١٨، تاريخ الزيارة ٢٠٢٤/٢٠/١١، www.hekma.org
- بلخيرة محمد: برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة: المركزية الغربية نموذجا، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم

العلوم الاقتصادية والقانونية، العدد١٠، جوان٢٠١٣.

- توماس سي. باترسون: الحضارة الغربية، الفكرة والتاريخ، تر. شوقي جلال، مؤسسة هنداوي، لام، لا ط، ٢٠١٨م.
- حسام الدين فياض: فلسفة الآخر والغيرية عند تزفيتان تودوروف، ٠٤آيار ٢٠٢٣، شبكة النبأ، www.annabaa.org
- -حوار مع عبد الله إبراهيم: في نقد المركزيات الثقافية، أجرى الحوار عدالت عبد الله سيروان، إيلاف ١١سبتمبر ٢٠٠٧، WWW.elaph.com
- د. غيظان السيد علي: الفلسفة الإفريقية -البحث عن الهوية ومناهضة المركزية الغربية-، مجلة متون، لا ع، لا م، لا ت.
- دارم البصام: نهاية التاريخ المعاصر ومحنة المركزية الغربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ٥ أكتوبر٢٠٢٣، www.caus.org.lb.
- دانيل ليتل: فلسفة التاريخ، تر. طريف السليطي، حكمة، ٢٠٢٠/٠٧/٠٣، www.hekma.org
- دحمان عبد الحق: تجليات ظاهرة القوة في الفلسفة الغربية والإسلامية، مركز المجدد للبحوث والدراسات، إسطنبول/ تركيا ٢٠٢٣م.
- راضية شافعي: إدوارد سعيد ونقد خطاب الكولونيالي الغربي، دفاتر مخبر الشعرية الجظائرية، المجلد٠٣، العدد١٠، أكتوبر ٢٠١٩.

- زروقي ثامر: الفلسفة الأنجلوسكسونية: المفهوم والخصائص، مجلة الحوار الثقافي، جامعة عبد الحميد بن باديس، كلية العلوم الاجتماعية، مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم، المجلد ٦،ع١، خريف ٢٠١٦.
- زهير توفيق: حوارية فكرية في رابطة الكتاب حول المركزية الثقافية الغربية، تحرير عزيزة علي، ٢٧ تشرين الأول٢٠٢٤، www. alghad.com .
- -زيغموند باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، تر. سعد البازعي وبثينة الإبراهيم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، أبو ظبي، لا ط، ٢٠١٦م.
- سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، نقد التمركز الأوروبي والتمركز الأوروبي المعكوس، معهد الإنماء العربي، دراسات الفكر العربي، لا م، ط١، ١٩٨٩م.
- سوزان ماير: مابعد الحداثة - دراسات في التحولات الاجتماعية والثقافية في الغرب -، تر. حارث محمد حسن وباسم علي خرسان، ابن النديم للنشر ودار الروافد الثقافية، لام، ط١، ٢٠١٨م.
- سيلا أحمد سالم عسيري: النزعة المركزية الغربية في الدراسات الاستشراقية - دراسة تحليلية نقدية -، مجلة كلية الدراست الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، العدد ٣٨، لا ت.

- سيندر بانجستاد: مقارعة العلمانوية - العلمانوية والإسلام في أعمال طلال أسد -، تر. طارق عثمان، معهد العالم للدراسات، ٢٣ ديمسبر٢٠١٧ www.alaalam.org.
- شريف حسني خليل: منهج التحليل الفلسفي بين هدم الميتافيزيقا وإرساء اللغة العلميّة، مجلة افاق العلمية، ج١٣، العدد٤، ٢٠٢١م.
- شيخاوي لخضر: نقد كونية المركزية الغربية، مجلة التدوين، كلية العلوم الاجتماعية/ جامعة وهران، ج١٢، العدد٢، ٢٠٢٠م، .
- عامر عبد زيد الوائلي: صورة الآخر الحضاري - نقد الاستعلاء في المركزية الغربية -، مجلة الاستغراب، لاع، لام، شتاء٢٠١٨م.
- عبد الإله بلقزيز: الاستشراق والمركزية الأوروبية، حاوره عدنان ياسين، مجتمع للدراسات الثقافية والتاريخية، www.mujtama. org .
- عبد الحق بلقيدوم: الذات والآخر من خلال المركزيات الثقافية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، العدد٥٢، لام، لا ت.
- عبد اللطيف بن عبد الله بن محمد الغامدي: المركزية الغربية وتناقضاتها مع حقوق الإنسان، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية الرياض، الرياض، لا ط، ٢٠٠٩م.
- عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لا م، ط١، ٢٠١٠م.

- عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، لا م، ط١، ٢٠٠٣م.
- عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠م.
- -عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، مؤمنون بلا حدود، ١٣ يونسو٢٠١٩، www.mominoun.com
- عبد الله إبراهيم: في نقد المركزيات، حاوره عدالت سيروان (العراق)، ١١سبتمبر ٢٠٠٧، www.elaph.com مجلة إيلاف الالكترونية.
- عبد الواحد ايت الزين: الثقافة الغربية ومطلب العدل الفكري - نقد الحداثيين أنموذجا -، ٦ أغسطس٢٠٢١، www.caus.org.lb.
- عبد الوهاب المسيري: العالم من منظور غربي، دار الهلال، لا م، لا ط، ٢٠٠١م.
- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧م.
- عصام حمزة: مفهوم الكولونيالية - كيف تستعبد العالم باسم الحرية -، إضاءات، ٢٠١٧/٠٢/١٢، www.ida٢at.com.
- عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق: نقد الحضارة الغربي في فكر

مالك بن نبي، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، لا م، ط١، ٢٠١٩م.

- غزلان هاشمي: التحيز الأيديولوجي في التمثلات الخطابية الغربية، ١١كانون الأول٢٠١١، www.diwanalarab.com
- ف.ل.جاكسون: مابعد الحداثة - إحياء التقليد الفلسفي مابعد الحداثة -، دراسات في التحولات الاجتماعية والثقافية في الغرب، نصوص مختارة، تر. حارث محمد حسن وباسم علي خرسان، ابن نديم للنشر والتوزيع/ دار روافد الثقافية ناشرون، لا م، ط١، ٢٠١٨م.
- فتحي المسكيني: كولونيالية الكراهية، الحوار المتمدن، العدد ٨٠١٨، ٢٠٢٤/٠٦/٢٤، www.ahewar.org.
- فرنسيس فوكوياما: نهاية التاريخ والإنسان الأخير، تر. فؤاد شاهين وجميل قاسم ورضا الشايبي، مركز إنماء القومي، بيروت، لا ط، ١٩٩٣م.
- فضل الله محمد إسماعيل: فلسفة القوة - أصولها وتطورها في الفكر السياسي الغربي وآثارها في عالم السياسة -، مكتبة بستان المعرفة، لا م، ط١، ٢٠٠٢م.
- فؤاد زكريا: نقد الاستشراق وأزمة الثقافة العربية المعاصرة - دراسة في المنهج -، هنداوي، لا م، لا ط، ٢٠١٩م.

- فوزي البدوي: طروحات حول الاستشراق وتدريس المسألة الدينية في الجامعة، حاوره نادر الحمامي، ٢١ أبريل٢٠١٦، مؤمنون بلاحدود، www.mominoun.com.
- كارل شميث: اللاهوت السياسي، تر. رانية الساحلي وياسر الصاروط، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٨م.
- كمال عبد اللطيف: نقد المركزية الثقافية الغربية، فكر وقضايا عامة، العدد ٤٣٩، العربي، www.alarabi.nccal.gov.kw
- مجموعة من المؤلفين: إدوارد سعيد - من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف -، تر. محمد الجرطي، دار المتوسط، ميلانو، لا ط، لا ت.
- محمد عمارة: بين العالمية الإسلامية والعالمية الغربية، مكتبة الإمام البخاري للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.
- محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، لا ط، لا ت.
- مصطفى ايت خرواش: نظرية العلمانية عند عزمي بشارة نقد السرديات الكبرى للعلمنة والعلمانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٩م.
- وائل حلاق: الدولة المستحيلة - الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة

-، تر. عمرو عثمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، لا م، ط١، ٢٠١٤م.

- وائل حلاق: قصور الاستشراق -منهج في نقد العلم الحديث-، تر. عمرو عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٩م.
- Anne Claire Orban, peut-on encore parler de racisme, analyse des discours d'exclusion et des mécanismes de rejet, Edition couleur livre, Bruxelles 2015.
- Karl lowith, histoire et salut ; les présupposés théologique de la philosophie de l'histoire ; traduit de l'allemand par marie, Christine chalhol, Gillet, Sylvie Hurstel et jean, François Kerjean , présentation d.kervégan, Gallimard.
- Ahmed Lemligui, Histoire d'un rascisme au long cours, quelques pistes pour un travailleur social, Rascisme ordinaires ?, 1/races et rascisme, le sociographe, 34, 2011,
- Jerzy A. Wojciechowski, La modernité et le progrès du savoir, l'écologie du savoir, 17mars 2000, L'agora, www. agora.qc.ca. Vu le 222022/03/.

الفهرس

المقدمة ٥

الفَصْلُ الأَوَّلُ: تَارِيخُ العُنصُرِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ الغَرِبيَّةِ ٩

١٢ | المبَحَثُ الأَوَّل: التَّأصيلُ التَّاريخِيُّ للعُنصرِيَّةِ الثَّقافِيَّةِ في الغَربِ

٣٢ | المبَحَثُ الثَّانِي: أَهمُّ النَّظريَّاتِ الفَلسفيَّة الَّتي تُؤرّخُ للعُنصُريَّة الثَّقافِيَّة

٥٠ | المبَحَثُ الثَّالثُ: المنهَجُ التَّاريخِيُّ الحَداثِيُّ دُعامَةٌ لترَسِيخِ العُنصرِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ

الفَصلُ الثَّانِي: نَقدُ العُنصُرِيَّة الثَّقَافِيَّةِ الغَرِبيَّة ٦٣

٦٥ | المبَحَثُ الأَوَّل: الأَزمَةُ الأَخلاقيَّةُ المُعاصِرة.. انهيَارُ المَنظُومَةِ القِيَميَّة الإِنسَانِيَّة

٦٧ | المبَحَثُ الثَّانِي: أَسطَرَةُ النَّموذَجِ الغَربيَ

٩١ | المبَحَثُ الثَّالِثُ: مُواجَهةُ العُنصرِيَّةِ الثَّقافِيَّة الغَربيَّة.. ضَرُورةُ النَّقدِ المُزدَوَجِ

٩٩ | خَاتمة

١٠٧ | لائحة المصادر والمراجع

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجِدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

مُلخَّص الكتاب

يَرتبط الحُضور الثَّقافيُّ الغربيُّ بالتَّفوق والنَّمذجة الكَونيَّة، الَّتي تُصنّفه كعتبة تاريخيَّة تتجاوز جُلَّ الحضارات السَّابقة، غطَّى هذا الحضور على إمكانيَّة تحقيق تلاقٍ بين ثقافات مُختلفة، قد تحوز على نفس المرتبة التَّصنيفيَّة في المسار التَّاريخي الَّتي يتم تأطير النَّموذج الغربيّ وفقها، ممَّا أكسب المركزيَّة الغربيَّة رداءَ العُنصريَّة الثَّقافيَّة، الَّتي تستمدُّ جذورها من الاعتقاد بالتَّفوُّق النَّاتج عن: الطَّابع الأوروبيّ والعقيدة المسيحيَّة والسَّلف الإغريقي.

يُؤسّس هذا التَّصور العُنصريُّ في بنية الثَّقافة الغربيَّة والأيديولوجيا الأوروبيَّة -الَّتي انكشفت خلال النَّهضة ولا زالت ممتدَّة إلى يومنا هذا- لإبداع سرديَّةٍ غربيَّةٍ، تنتعش على الاستمراريَّة والامتداد التَّاريخي من اليُونان القديمة، مرورًا بروما إلى القُرون الوُسطى، وصولًا إلى النيوكولونياليَّة المُعاصرة (الاستعمار الجديد - Neocolonialism)، الأمرُ الَّذي يقطع الصّلة بالتَّأثيرات الثَّقافيَّة الأُخرى. وبالتَّالي، نُصبح أمام طرف مُعاكس لهذا الغرب وهو الشَّرق، ونتيجة هذا التَّقابُل يحوز الشَّرق على الصّفات الدُّنيا واللا عقلانيَّة المُعاكسة للغرب، ممَّا يمنح أحقيَّة التَّفوُّق الثَّقافيَّ للغرب، كُلُّ هذا أوجد أُحاديَّةً ثقافيَّةً، تتغذَّى على العُنصريَّة وإقصاء المُختلف بدعوى التَّخلُّف.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد